
رحلة مع الثأر
حكايات ضابط في الأرياف
بقلم
اللواء/ سراج النيل الصاوي
مؤسسة حورس الدولية

روايـــة

رحلة مع الثأر

حكايات ضابط فى الأرياف

سراج النيل الصاوى

مقدمة

بقلم دكتور / أحمد أبوزيد

الكتاب الذى يسعدنى أن أقدم له هنا يرتكز فى أساسه على الخبرة الشخصية الطويلة لرجل من رجال الشرطة الذين يجمعون بين الثقافة الواسعة المتنوعة والوعى والالتزام بمتطلبات ومقتضيات العمل الرسمى الذى يحتاج إلى جانب الحزم حسن الإدراك للواقع الذى يتعامل معه ، والتغلغل فى فهم نوازع البشر وتقاليد المجتمع التى توجه الناس فى سلوكهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض.

ومع أن الكتاب يدور حول (ظاهرة) محددة من الظواهر التى تطبع بعض مجتمعاتنا المحلية فى مصر، إلا أنه فى عرضه الشائق لهذه الظاهرة من واقع الخبرة الميدانية يلقى كثيرا من الأضواء على عدد من جوانب الحياة التى تتصل بهذه الظاهرة .. ظاهرة الأخذ بالثأر.

واعتماد الكتاب على الخبرة الشخصية يضفى على محتوياته مسحة ملموسة وواضحة من العمق والصدق على الرغم من البساطة الظاهرية التى تلازم أسلوب القص الذى يتبعه الكاتب فى عرض الأحداث الواقعية والنظرة الذاتية لتلك الأحداث. وهى كلها تعبر فى آخر الأمر عن مدى فهم الكاتب للمشكلة التى يعالجها فى كتابه .

وعلى الرغم من أن الثأر يعتبر من وجهة النظر السوسيولوجية والأنثروبولوجية "نظاما اجتماعيا" له مبرراته

وتقاليده وأحكامه ، بل ومنطقه الخاص الذى تأخذ به الجماعات التى تعترف به وتمارسه فإنه يعتبر فى الوقت ذاته وبالنسبة للمجتمع المصرى ككل واحدا من أكبر المشاكل الاجتماعية التى تمثل تحديا واضحا ليس فقط لأجهزة الأمن ، بل وأيضا لكثير من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراسخة. ومن هنا كان المجتمع المصرى يعمل بشكل أو بآخر على إيجاد الحلول التى تكفل القضاء على هذه المشكلة، أو على الأقل الحد من فاعليتها وتأثيرها على حياة الفرد والمجتمع وإرساء سلطة القانون وتأمين الناس على حياتهم خاصة وأن الثأر يقوم على مبدأ الأخذ بالمسئولية الجماعية التى تعنى فى كثير من الأحيان أخذ البرئ بذنب الجانى.

ومع الاعتراف بوجود وانتشار الثأر فى بعض مناطق مصر وبين بعض شرائح المجتمع المصرى ، والاعتراف أيضا بخطورة هذه الظاهرة فالأغلب أن الثأر ليس ظاهرة فى هذا المجتمع ، بمعنى لأنه لم يكن معروفا ـــ بقدر ما يمكن الوصول إليه من المعلومات المتاحة ـــ فى المجتمع المصرى القديم ، وإنما هو (نظام) وافد على مصر فى مرحلة تالية من تاريخها الطويل، فليس ثمة ما يدل بشكل قاطع على أن مصر فى العصور الفرعونية مثلا عرفت الثأر بالمعنى الدقيق الذى نفهم به هنا (النظام) فى الوقت الحالى ،

وأن كانت حوادث القتل معروفة بغير شك كما هو الشأن بالنسبة لكل المجتمعات الإنسانية. ومع أن أوراق البردى تمدنا بكثير جدا من المعلومات والحقائق عن كثير من جوانب الحياة الاجتماعية، وبخاصة تلك الحقائق المتعلقة بنظم الإدارة القضائية والمحاكم وإجراءاتها والعقوبات المختلفة التى توقع على الجناة والمذنبين، فإنها لا تكشف لنا بشكل صريح وواضح عن معرفة ذلك المجتمع المصرى القديم بالثأر كنظام اجتماعى راسخ ومعترف به على الأقل بين الجماعات التى تمارسه، أو أنه ـ فى حالة وجوده ـ كان يشكل ظاهرة خطيرة، يعانى منها المجتمع ككل كما هو عليه الشأن فى
الوقت الحالى. وربما كان عدم معرفة المجتمع المصرى القديم فى العصور الفرعونية راجعا ليس فقط إلى طبيعة الإنسان المصرى التى تميل فى عمومها إلى التسامح ، وإنما ترجع أيضا إلى نفس طبيعة التنظيم الاجتماعى والسياسى الذى عرفته مصر منذ تلك العصور فقد كانت مصر تؤلف دولة لها نظامها وقوانينها وأعرافها التى تحكم العلاقات بين الناس، ولم تكن تؤلف مجتمعا قبليا متناحرا تسوده العلاقات العدائية والعدوانية وسيتعرض للإغارات والإغارات المضادة بين الجماعات القبلية المتناحرة التى يتحكم فى سلوكها وفى علاقاتها بعضها ببعض الشعور القوى بالانتماء إلى القبلية وإلى الوحدات القرابية التى تقوم على مبدأ العصبية.

بل إننا لا نكاد نعرف شيئا مؤكدا عن وجود هذه الظاهرة ـ فى شكلها النظمى ـ فى الفترات التاريخية التالية لعصر الفراعنة،

وهى الفترات التى خضعت فيها مصر للحكم الأجنبى حتى مجئ العرب لمصر ، وأن كانت مصر قد احتفظت خلال هذه العصور بكثير من ملامح حياتها ونظمها التقليدية القديمة ، كما احتفظ المصـــريون بقدر كبير من تقاليدهم وعاداتهم ، بل وعقائدهم وقيمهم الاجتماعية الأصيلة.

ولذا فإن الأغلب هو أن المجتمع المصـــرى عرف الثأر بعد مجئ العرب وبعد أن وفدت إلى مصـــر أعداد من القبائل العربية التى نقلت معها عوائدها التى كانت تحكم العلاقات بينها. وقد احتفظت هذه الجماعات القبلية التى استوطنت صحارى مصـر وبعض مناطق الصـــعيد والوجه البحرى ، وهى التى يشـــيع فيها الثأر أكثر من غيرها ، وهى فى عمومها بعيدة عن نســـبيا عن التأثير الحضرى ، ولا تزال تحتفظ إلى حد كبير بكثير من ملامح التنظيم القبلى وشبه القبلى. وعلى الرغم من كل ما أدخله الإسلام من تغيرات جذرية فى كثير من جوانب الحياة ، فإنه لم يفلح فـى القضـــاء على الثأر بين الجماعات القبلية فى البلاد العربية والتى خضعت للتأثير العربى.

والواقع أن تماســـك الجماعة القرابية إلى الحد الذى تجده فى بعض مناطق الصـــعيد والصـــحارى المصـــرية هو من العوامل الأساسية التى تساعد على استمرار الثأر، وذلك على اعتبار أن التنظيم القبلى من شـــأنه أن يعطى الأولوية المطلقة للجماعة على حساب الفرد الذى يحتل بذلك مكانة ثانوية بحيث تكاد شخصيته ومكانته الاجتماعية ومقوماته تذوب وتختفى تماما أمام ســـطوة الجماعة القرابية القبلية التى يســـتمد منه الفرد كيانه الاجتماعى والسياسى.

ولم يكن فهم (ميكانيزم) الثأر، الذى قد يستمر لعدة أجيال ، إلا فى فى ضــوء هذا المبدأ ، أعنى مبدأ إنكار قيمة الفرد كفرد، أو على الأقل التهوين من شـأنه فى سـبيل إعلاء قيمة الجماعة القرابية أو القبلية ككل ، بكل ما يتطلبه ذلك من شـــيوع مبدأ المســئولية الجماعية الذى يعنى ـ فى هذا المجال ـ أن ما يقع من اعتداء على أى فرد من أعضـاء تلك الجماعة يعتبر اعتداء على الجماعة ككل ، وأن مســئولية رد العدوان تكون من أهم واجبات الجماعة ككل أيضـــا ، بحيث قد تكلف أى فرد من أفرادها الاضـــطلاع بمهمة الأخذ بالثأر باسمها كلها وإلا لحق بها العار
إلى الأبد وانخفضت منزلتها الاجتماعية إزاء الآخرين .

كما أن مبدأ جماعية المســئولية يصـــدق من الناحية الأخرى على جماعة الجانى بحيث يمكن الاقتصـــاص من أى فرد من أفرادها فى مقابل الاعتداء الذى صدر عن أحد أعضـائها، أى أنه ليس من الضــــرورى أن يؤخذ بالثأر من المعتدى أو الجانى ذاته حتى وإن كان معروفا للجانب المعتدى عليه .

بقول آخر ، فإنه فى المجتمعات ذات التنظيـــــــم القبلى الذى تحتل فيه كل جماعة قرابيـة مكانة محـددة فى البناء الاجتماعـى الكلى بحيث لا يكاد يكون للفرد أى كيان اجتماعى بعيد ومتميز عن جماعتـه القرابيـة. يعتبر الاعتداء على أى فرد من أفراد تلك الجماعة القرابية كما لوكان اعتداء على الجماعة كلها ، وبالتالى على كل فرد من أفرادها شخصيا ، ولذا يتعين على كل فرد ــ من الناحية النظرية على الأقل ــ الرد على ذلك الاعتداء على أى فرد من أفراد عائلة الجانى أو جماعته القرابية ،

وهذا فى الواقع هو جوهر نظام الثأر ، وبذلك تأخذ الجماعة القبلية "القانون فى يديها" كما يقول التعبير الإنجليزى ، وبخاصة فى المناطق التى يظهر فيها ضعف الأداة الحكومية واضحا أو غير فعال نتيجة لبعض الاعتبارات القبلية التى يصعب الدخول هنا فى تفاصيلها والأخذ بالثأر يكفل ليس فقط غسل الإهانة عن الجانب المعتدى عليه ولكن أيضا رد التوازن التقليدى بين الجماعات القرابية إلى ماكان عليه قبل وقوع الاعتداء ، حيث أن لكل جماعة قرابية فى المجتمع القبلى مكانة محددة بالنسبة لغيرها من الجماعات والاعتداء على أى جماعة منها يؤدى إلى اختلال ذلك الوضع الذى لن يعود إلى نمطه الأصلى إلا من خلال رد الاعتداء عن
طريق الأخذ بالثأر.

ولو قبلنا هذه النظرة لأمكن لنا أن نفهم السبب فى عدم استعداد الجماعة القرابية المعتدى عليها النزول عن حقها فى الدم مقابل أخذ الدية أو أى تعويض آخر مناسب ، فالذى ينهى مايمكن تسميته "علاقة الثأر" هو الأخذ بالثأر فحسب ، ومن هنا كان بعض الباحثين يرون فى الثأر وسيلة فعالة فى استرداد المجتمع القبلى لتوازنه التقليدى عن طريق إنقاص الجماعة القرابية المعتدية بنفس النسبة التى نقصت بها الجماعة المعتدية عليها. وبالتالى استرجاع الجماعة الموتورة لكرامتها وشخصيتها الاجتماعية . وقد تختلف أراء الناس كأفراد فى جدوى الثأر أو فائدته ولكنهم يخضعون لأحكامه ومنطقه .

ولذا فإن من الخطأ الاعتقاد بأنه يمكن القضاء على الثأر عن طريق تشديد العقوبة وقد تكون الوسيلة الفعالة فى القضاء عليه هى الأساليب والإجراءات غير المباشرة كالتعليم بكل مراحله ، وتغيير نمط المعيشة من النمط الزراعى أو البدوى إلى التصنيع ، أى توجيه الأفراد إلى مجالات جديدة للعمل تساعد على خلق علاقات اجتماعية جديدة لا تخضع لقيم الحياة القبلية السائدة فى الصحراء وبعض مناطق الصعيد ، وقد يتطلب ذلك كثيرا من الوقت والجهد ولكنه ثمن ضئيل إذا قورن بالنتيجة المرجوة أو المرتجاة.

وبعد ، فإن كتاب " رحلة مع الثأر " الذى يعرض فيه صاحبه اللواء سراج النيل الصاوى جانبا لا يستهان به من خبرته وتجاربه العديدة الطويلة ، فى أكثر من منطقة من مصر ، كما يدلى فيه بملاحظاته العميقة الصائبة عن إحدى المشكلات المهمة التى يعانى منها المجتمع المصرى ويود أن يجد لها حلا ، هو كتاب خليق بالترحيب باعتباره عملا متميزا يمثل شكلا من أشكال أدب المذكرات أو أدب الذكريات من ناحية ، وتسجيلا أمينا لظاهرة الثأر التى تميز الحياة الاجتماعية فى بعض مناطق المجتمع المصرى المعاصر ، و ذلك كله فى أسلوب أدبى رشيق فى بساطته التى تصل به فى سهولة و يسر إلى عقل القارئ وقلبه ووجدانه ...

و أعتقد أن أفضـل تحية يمكن أن توجه إلى الكتاب و صـاحبه هى أن يُقبِل القارئ إلى قراءة الكتاب بذهن مفتوح و عين نافذة و قلب لا يخلو من التعاطف مع هذه الظاهرة الشـديدة التعقيد و التى قد يرفضـها القارئ ولكنها رغم كل شـئ تخفى وراءها كثيراً من الجوانب الطيبة التى تعكسـها العلاقات الدافئة بين أفراد نفس المجتمع الذى يلجأ إلى الثـأر فـى إعـادة
توازنه و تماسكه و الاحتفاظ بكرامة أعضائه .

دكتور أحمد أبوزيد
أستاذ الأنثربولوجيا
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

إهــداء

لا يســـعنى و أنـا أقدم كتابى" حكايات ضــــابط فى الأرياف ـ رحلـة مع الثـأر" فى طبعتـه الأولـى ، إلا أن أهـديـه لروح كـاتبنـا الكبير توفيق الحكيم ، حيـث أن عـام ١٩٩٨ هو الـذكرى المئويـة لميلاده .. وهو الأديـب الـذى نهلنـا الكثير من أدبـه ، فى روايـاتـه العديدة، وخاصـة "يوميات نائب فى الأرياف" والتى مضى عليها أكثر من الستين عاما، ولازالت تحتفظ ببريقها وبمذاقها الخاص.

كما أهدى الكتاب أيضا :

لكـل يتيم حـرم مـن حـنـان أبيـه لفقـده ...

ولكل أب دمعت عيناه لفراق فلذة كبده ...

ولكل عروس زف الردى فتاها ...

ولكل أم ثكلـت بفقـد ضنــــاها ...

لأرواح هؤلاء جميعا ، الذين ســقطوا صـــرعى فى جرائم الأخذ بالثأر .. إليهم جميعا .. أهدى كتابى " رحلة مع الثأر " .

سراج النيل الصاوى
الإسكندرية ـ يولية ١٩٩٨

(١) بداية الرحلة

أحد أيام شهر أغسطس، فى نهاية الستينيات بالقرن العشرين، يتحرك قطار فى موعده تماما، متجها من محطة القاهرة إلى صعيد مصر حاملا بين جنباته خلقا كثيرا، من مختلف الأجناس واللغات... سائحين يودون زيارة الآثار الفرعونية بمصر العليا... ومصريين ـ من أهل الصعيد ذاته ـ يعودون لمحال إقاماتهم بعد قضاء مصالحهم بالقاهرة ... ومن بينهم موظفون غرباء يعملون بتلك المحافظات.

بجوار أحد نوافذ القطار، جلس شاب من بين هؤلاء الموظفين الغرباء، ناظرا للخارج، كان بصره ساهما وفكره شاردا، لا يلبث أن يعاود تصفح المجلة التى معه بسرعة، ثم لا يطيق صبرا على الاستمرار فى القراءة، فيعيد المجلة إلى موضعها السابق، ويعود إلى ما كان عليه، ساهما، شاردا، حالته تعبر عن قلق نفسى يعتريه!.

لحظات بعدها يشعر الشاب بيد تربت على كتفه، تخرجه من حالته هذه، إنها يد صديق عزيز لديه، لم يره منذ فترة طويلة، ويالها من مفاجأة سارة بالنسبة له... يقف فى الحال... يتعانقان عناقا حارا...يدعوه الصديق لتناول مشروب مثلج "ببوفيه" القطار، يخبره الصديق أنه علم بوجوده بالقطار من صديق ثالث لهما بعربة القطار التالية... يسرعان إلى "البوفيه"، وقد عرجا فى طريقهما إلى صديقهما الثالث،

اصطحباه معهما، تناولوا المرطبات، علت على شفاههم الابتسامات تعبر عن فرحة اللقاء. من أحاديثهم يتبين أنهم ضباط شرطة، وأنهم ينفذون اليوم الحركة الخاصة بتنقلاتهم إلى صعيد مصر.

وقد فسر هذا رؤية العديد من ضباط الشرطة، بزيهم الرسمى، ومن مختلف الرتب، هم وعائلاتهم بداخل القطار!.

تبين من أحاديث الضباط الثلاثة، أنهم لم يلتقوا ببعضهم منذ تخرجهم، إنهم أبناء دفعة واحدة، إلا أن تعيينهم كان بمحافظات مختلفة كما أن نقلهم تم فى هذه الحركة إلى محافظات مختلفة أيضا ... يتعاهدون سويا على أن يكونوا دائمى الصلة ببعضهم .

حكى ثالثهم عن مشكلة تقابله حاليا .. زوجته حامل فى شهرها الأخير ... حدد الطبيب موعد الولادة بعد أيام قليلة .. تركها هى وطفلتها الصغيرة فى رعاية أمها المسنة؛ كم يود أن يكون بجوارها الآن؛ ليشد من أزرها ... لكنها التعليمات التى تقضى بضرورة تنفيذه لأمر النقل أولا، ثم يحصل على الإجازة من موقعه الجديد .

مر وقت غير قصير، وهم يتبادلون الأحاديث المختلفة ... كان وقتا ممتعا عادوا جميعا بعدها إلى مقاعدهم .

عاد بطل حكايتنا هذه إلى جلسته السابقة، بجوار النافذة .. وقد تبدد القلق عنه قليلا، ساعد على ذلك أن الجالس بجواره أخذ يتحدث معه ...

إنه يكبره بعدة أعوام، ويرتدى الملابس المدنية، تبين من حديثه بعدها أنه أحد ضباط القوات المسلحة العاملة بأحد المعسكرات بذات المحافظة المنقول إليها الشاب، من حديثهما معا اكتشفا أنهما من نفس البلدة الساحلية، التى يقيمان بها، حيث تعيش أسرتاهما بالإسكندرية . يكتشفان أيضا أن هناك صلة نسب تربط بين عائلتيهما ببعض فكان هذا سببا؛ لأن صارت بينهما ألفة ومودة بسرعة .

تحدث ضابط الجيش معه عن متاعب الغربة، والتى هى قدر للعاملين ببعض المهن . حدثه عن المدينة عاصمة المحافظة، وعن أهم معالمها، وعن أحسن المحلات التى تبيع الجبن الرومى و"البسطرمة"، حيث إنه قضى بها ما يقرب من العام، عقب على حديثه ضابط الشرطة بقوله، بأنه لن يقضى بتلك المدينة إلا ليلته هذه فقط، ثم يتوجه فى الصباح لمقابلة رؤسائه بالمباحث بمديرية الأمن، بعدها يتجه إلى عمله الجديد بأحد مراكز الشرطة بشرق النيل، حيث يتسلم عمله رئيسا لوحدة المباحث الجنائية به .

يتوقف القطار أثناء رحلته بالمحطات الرئيسية لعواصم المحافظات فقط ... ينزل منه ركاب ... ويصعد آخرون . ينظر الشاب أثناء لحظات التوقف هذه من النافذة، فيشاهد بعض ضباط الشرطة بزيهم "الكاكى" يقفون بتلك المحطات يستقبلون زملاءهم من الضباط المنقولين إلى تلك المحافظات، والتى قد تكون بالنسبة لبعضهم المرة الأولى التى تطأ أقدامهم أرضها مثل ضابطنا الشاب هذا، الذى يحدث نفسه قائلا بأن أحدا لن يكون بانتظاره، فهو لم يخبر أيا ممن يعرفهم ويعملون بتلك المحافظة بموعد قدومه.

أخيرا ... تأتى المحطة التى يقصدانها، ينزلان من القطار، يدعوه ضابط الجيش للسيارة التى كانت تنتظره، فيقبل الدعوة شاكرا، يوصله إلى استراحة الشرطة كطلبه، ويحيى رفيق سفره مودعا .

يجد الاستراحة مليئة بالضباط فى هذا اليوم ... تردد فى الإقامة بها، وود أن يبحث عن أحد الفنادق ... دعاه أحد الضباط المقيمين بها بصفة مستمرة للمبيت معه بالحجرة، شكره ... حكى له أنه يعمل بالمحافظة منذ سنتين، وأن اليوم هو بداية العام الثالث والأخير للعمل بتلك المحافظة، يعود بعدها إلى حيث يرغب ... يؤكد له بأنهم فى الوزارة يلبون رغبات ضباط هذه المحافظة طالما أن تقاريرهم السرية التى يحصلون عليها، بدرجة الامتياز... كان هذا الضابط معلوماته غزيرة... كثير الكلام، بعدها ناما تاركين النوافذ والأبواب مفتوحة من شدة الحرارة .. الجو خانق .. فالرطوبة عالية هذه الليلة، ولا توجد أجهزة تكييف فى حجرات الاستراحة، الناموس جعل ضابطنا لا يستطيع أن ينام ليلته هذه من أزيزه وقرصه ... يتعجب كيف أن زميله بالحجرة غط فى نوم عميق، وشخيره ذو الصوت العالى تضامن مع الناموس فى إقلاق راحته ... لم يتمكن من النوم إلاّ قرب الفجر، بعد أن استكان الناموس للراحة، وقد شبعت معدته بملئها من مص دمائه .

فى الصباح، توجه ضابطنا إلى مديرية الأمن، تقابل مع رؤسائه وزملائه بإدارة البحث الجنائى، كانت اللقاءات عبارة عن نصائح وتوجيهات وتمنيات بالتوفيق،

فضلا عن التعارف بينهم . سعد ضابطنا كثيرا بما سمعه من وكيل المباحث وفى وجود عدد من زملائه بأنه تم تعيينه، فى هذا المركز المشهور عنه بوقوع حوادث كثيرة به، بعدما علموا بأنه حصل على أعلى الدرجات فى التقييم السرى، لضباط المباحث المنقولين إلى المحافظة، وتعجب ضابطنا لأنه لم يكن يعلم هذه المعلومة عن نفسه!!.

فى نهاية اللقاءات، قام أحد مفتشى مباحث المديرية بتكليف مخبر لإحضار سيارة أجرة، ثم يتوجه معه ليوصله حتى ديوان المركز؛ لعدم وجود سيارات كافية من سيارات الشرطة، أسرع المخبر بإحضار سيارة تعمل بين المركز الذى يقصدونه، وعاصمة المحافظة . انطلقت السيارة وبها الضابط والمخبر، الذى جلس بجوار السائق، بعد أن توجها أولا للاستراحة؛ لأخذ حقائب الضابط، التى تم وضعها بالسيارة، وكانت عبارة عن حقيبة كبيرة وأخرى صغيرة .

كان الطريق بين عاصمة المحافظة والمركز، طويلا وممهدا، لاحظ الضابط أن الزراعات تحيط الطريق من جانبه الغربى ـ القريب من النيل ـ أكثر من جانبه الشرقى، والذى يرى منه سلسلة من الجبال، تسير فى حذو الطريق، تقترب منه تارة، وتبتعد عنه تارة أخرى . شاهد نخلة شكلها غريب، فبعد حوالى مترين بطول الجزع، تتفرع منها ثلاث نخلات!! .. يتعجب لها الضابط، فيقص المخبر حكاية صاحب هذه النخلات، ويقول له أن الرجل أنجب ثلاثة أبناء، وقبل وفاته، كان يوصيهم جميعا بالتماسك والاتحاد، ولعل النخلة هذه ترمز لوصية والدهم .

استمع الضابط لحديث المخبر مُصغياً؛ فتشجع الأخير فى الاسترسال، تحدث معه عن بداية حدود المركز، وحدود المراكز المجاورة له، وأسماء البلاد والعزب، التى تقابلهم فى الطريـق . كان يحدثـه أيضـا عـن أهـم الخصومـات الثأريـة بتلك البـلاد، وكـذلك أشهـر الخصومات، وأسماء العائلات الكبيرة ببلاد المركز، ثم حدثه عن الخصومات السابقة، والتى انتهت بالمصالحة؛ لتساوى الرؤوس . يستوقفه الضابط، مستفسرا منه عن معنى تساوى الرؤوس يجيبه المخبر بأن هذا يعنى أن عدد القتلى، لأحد الأطراف، أصبح يتساوى مع عدد القتلى للطرف الآخر، ثم يضيف قائلا بأنه لولا تساوى الرؤوس فإن أى صلح بين المتخاصمين يكون غير جدى . تشوق الضابط لحديث المخبر، فزاد المخبر فى الاسترسال أكثر .

أخيرا تصل السيارة إلى ديوان مركز الشرطة، إنه مبنى ضخم ومتسع . ورغم قدمه ـ حيث يبدو عليه أنه قد بُـنِـىَ منذ فترة طويلة ـ إلا أن بنيانـه يظهـر قويا ومتماسكا .

لاحظ الضابط أن الحارس المعين على باب المركز، ضخم الجثة، طويل القامة، ملابسه "الكاكى" نظيفة، يمسك بندقيته باعتزاز، وحذاؤه نظيف، له شارب كثيف مبروم،عيناه متسعتان، ونظره للأمام... منظره مهيب؛ لعل المأمور اختاره؛ ليعطى المركز هيبة لمن يدخله . لم يُعِر هذا الجندى أى اهتمام لوقوف سيارة الأجرة، نبهه المخبر لوجود رئيس مباحث المركز الجديد انتبه وحَـيَّاهُ التحية العسكرية بسلاحه، ثم عاود النظر إلى الأمام كما كان .

حمل السائق الحقيبة الكبيرة، وأدخلها للمركز، حيث وضعها فى أول حجرة قابلته على يساره، وهى حجرة معاونى الشرطة والتحقيقات، وتبعه المخبر حاملا الحقيبة الصغيرة، ثم لحق بهما رئيس المباحث إلى الحجرة تبين وجود ضابطين بها، رحبا برئيس المباحث ترحيبا شديدا، وانصرف سائق السيارة الأجرة بعد أخذه لأجرته، مصطحبا معه مخبر المديرية .

أخبر أحد الضباط ـ بالتليفون ـ ضابط المباحث الموجود بمكتبه بالطابق الأول، بوصول رئيس المباحث، لم تمر لحظات قليلة، إلا وكان ضابط المباحث معهم بالحجرة يرحب برئيسه، استأذنهم رئيس المباحث؛ ليقابل المأمور، حيث علم منهم بوجوده بمكتبه بالحجرة المقابلة لحجرتهم، أخبروه بأنه تسلم عمله أمس فقط، فهو منقول حديثا مثله فى هذه الحركة، لكنه كان بمركز آخر، من مراكز المحافظة ذاتها .

كانت مقابلة المأمور له حسنة، فقد كان بشوشا فى لقائه، حنونا، استفسر منه إن كان متزوجا، أجابه رئيس المباحث أنه بمفرده، حيث أرجأ فكرة الزواج إلى مابعد انقضاء فترة خدمته بالصعيد .
أثناء ذلك دق جرس التليفون، تبين أن المتحدث يخبر المأمور بما أنجزه من إجراءات بشأن نقل أولاده من مدرستهم الحالية بالمركز الآخر إلى المدرسة الثانوية بهذا المركز، شكره المأمور، وضع السماعة وابتسم لرئيس المباحث قائلا :
ـ أولادى يعاتبوننى دائما من كثرة تنقلاتهم من مدرسة إلى أخرى، لم يستقروا فى مدرسة واحدة مدة طويلة، كبقية زملائهم؛ لكثرة تنقلاتى سواء فى التنقلات العامة أوالداخلية .
صمت المأمور برهة، ثم أكمل :

ـ هذا قدرهم، فوالدهم ضابط بالشرطة !!

استمر الحديث الودى بينهما لفترة، ثم استأذن رئيس المباحث من المأمور؛ ليذهب إلى مكتبه، وليخطر باستلامه العمل. توجه إلى حجرة معاونى الشرطة والتحقيقات، لم يجد أحدا من الضباط بها، وجدها خالية من أى أحد، كما لم يجد حقيبتيه! أسرع يستعلم عن حقائبه من الجندى المعين للحراسة بباب المركز، والمجاور موقعه للحجرة، سأله متلهفا :

ـ ياجاويش ... أين " الشنط " التى كانت هنا؟

ـ لا أعرف ياأفندم .

ـ " الشنطة " الكبيرة، و" الشنطة " الصغيرة، دخل بهما المخبر والسائق معى أمامك منذ قليل، أين هما؟

ـ لا أعرف ياأفندم.

ـ نعم؟؟! ... وأين الضباط الذين كانوا بالحجرة الآن؟

ـ ركبوا السيارة " الجيب " منذ دقائق ياأفندم .

ـ كانت معهم " الشنط "؟

ـ لا أعرف ياأفندم .

يحاول رئيس المباحث أن يبدو هادئا ... ولا يود أن يثور ويوبخ الجندى منذ أول لحظة لوصوله؛ لعدم يقظته فى عمله، بينما يحدث نفسه قائلا :

ـ سوف تكون فضيحة بجلاجل، لوأن " الشنط "ُسرِقت !

يخرج علبة السجائر، ويضع سيجارة فى فمه، وببطء يحاول أن يشعلها، بينما عقله يفكر فيما حدث لحقائبه .

(٢) التعارف

لم تمر لحظات حتى عادت السيارة " الجيب" ... واقفة أمام باب المركز مباشرة، فى موضعها السابق، قفز منها فى خفة ضابط المباحث وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة لرئيس المباحث، الذى كان يدخن سيجارته قرب الباب، بينما انطلقت السيارة بعدها بالضابطين الآخرين .

وَجَّهَ ضابط المباحث حديثه لرئيسه قائلا :

ـ كل شىء تمام !

يسأله رئيس المباحث مستفسرا، بينما فكره مشغول بحقائبه:

ـ أى شىء تقصد؟

ـ فى خمس دقائق حجزنا لسيادتك حجرة مناسبة باستراحة مجلس المدينة ووضعنا "الشنطتين" بها بصفة مؤقتة لحين تجهيز الشقة لسيادتك ونبهنا على طباخ الاستراحة بإعداد وليمة فخمة، لعل الطعام بالاستراحة يعجبك.

سعد رئيس المباحث لسماعه بأن حقائبه أرسلت للاستراحة، وابتسم وهو يتحدث لزميله شاكرا، و متعجبا من أمر الجندى المعين للحراسة على باب المركز، فمظهره يوحى باليقظة التامة، بينما لم يلحظ نقل الحقيبتين رغم كبر حجمهما، ثم وضعهما فى السيارة " الجيب" الواقفة أمامه مباشرة!!.

يجيبه ضابط المباحث بقوله، بأنه تَعَوَّدَ هنا بالمركز، سماع إجابات بعض العساكر، بأنهم لم يشاهدوا شيئا، أو أنهم لا يعرفون شيئا، رغم معرفتهم الشىء الكثير، منعا من دخولهم فى مشاكل هم فى غنى عنها .

و يصعدان سويا إلى حجرتهما، حيث مكتبهما فى الطابق الأول العلوى .
لاحظ رئيس المباحث أثناء صعودهما، وجود أتربة عالقة بجدران السلالم المؤدية إلى مكتبه، لكنه فضّلَ عدم التعليق على ذلك فى وقتها. و بانتهاء صعود ذلك السلم الضيق، ظهر سطح المبنى الفسيح ممتدا، على أحد جوانبه توجد عدة حجرات لرئيس المباحث وأعوانه من رجال المباحث و تنفيذ الأحكام وكذلك حجرة مكتب التجنيد، و فى نهايتها حجرة نائب المأمور .

لاحظ أيضا وجود بعض النسوة متشحات بالملابس السوداء، يجلسن بجوار عدد من الرجال ... بجلاليبهم داكنة اللون، يتحدثون بود ظاهر، مما يوحى بأنهم على صلة وثيقة ببعضهم، لم يُظهِر رئيس المباحث لذلك اهتماما، فلم يستفسر عنهم .
أشار ضابط المباحث بيده إلى حجرة مكتبهما قائلا :
ــ اتفضل ياأفندم .
دخل رئيس المباحث أولا ... وجدها حجرة كبيرة متسعة، أكبر من حجرة مكتبه التى كان يعمل بها بالوجه البحرى، يتصدرها فى المواجهة مكتبه الخشبى الكبير، ذو اللون البنى، ويوجد مكتب خشبى بنفس اللون تقريبا، لكنه صغير الحجم نسبيا، على يمين الداخل، يخص ضابط المباحث .
فى مواجهة هذا المكتب الصغير توجد " كنبة استانبوللى" خرجت قطع صغيرة من القطن الأسمر من بين أحشاء المرتبة التى عليها، يصعب تبين لونها الأصلى من شدة الاتساخ الذى غطى كل كسوتها. و فى أحد أركان الحجرة وقف مائلا دولاب المباحث بلونه البنى أيضا، و هو الدولاب الذى توضع به

المعلومات المسجلة عن النشاط الإجرامى وغيرها. كانت هذه الأثاثات جميعها تعلوها الأتربة بشكل ملفت للنظر، بينما يظهر واضحا، أن خيوط العنكبوت نسجت ببعض أركان الحجرة بيوتا لها.

يجلس الضابطان كل منهما إلى مكتبه، يلاحظ ضابط المباحث امتعاض وجه رئيسه، وهو يعاود النظر شذرا إلى "الكنبة" من شدة قذارتها . يخبره الضابط بأنه تسلم عمله أمس فقط بمكتب المباحث، وانشغل طوال الأمس فى حادث جناية قتل بإحدى بلاد المركز، ولم يمض بالمكتب إلا وقتا قصيرا، لكنه لاحظ احتياج الحجرة إلى نظافة شاملة ، فنبه على الفراش، صباح اليوم لتلافى ذلك عقب انتهاء العمل مباشرة. طلب منه رئيس المباحث تكليف أحد النقاشين ليعيد طلاء الحجرة بالجير وشراء كسوة جديدة من قماش الكريتون ، يفصلها أحد الخياطين وذلك كله على نفقته الخاصة ، حيث أن الإجراءات المالية المعتادة قد تطول، فوعده ضابط المباحث بأنه سيشرف على تنفيذ ذلك من باكر بإذن الله.

شعر رئيس المباحث بارتياح لزميله الذى سيعمل معه، وتوسم فيه خيرا واعتقد بإمكان الاعتماد عليه، فهو لماح وذكى، وهى أسس يجب أن تتوافر فيمن يعمل بالمباحث .

تطرق الحديث بسرعة بين الضابطين إلى عدة نواح شخصية واجتماعية، أخبره ضابط المباحث بأنه عُيِّنَ بالمركز عقب تخرجه منذ عامين ونصف، كضابط نظامى، إلى أن تسلم عمله بالمباحث أمس، ثم أحاطه بمعلومات عن ضباط المركز القدامى،

و ظروف كل منهم، وكيف أن مأمور المركـز السابـق و نائبه قد نُقِلا فى الحركة الأخيرة، ومعهما رئيس المباحث وضابط المباحث أيضا؛ لانقضاء مدة الثلاث سنوات الواجب قضاؤها بالصعيد، قبل النقل إلى المنطقة الأولى كالقاهرة والإسكندرية أو المنطقة الثانية كمحافظات الوجه البحرى، علقا على ذلك بضرورة التنسيق عند إجراء التنقلات، بحيث لايُنقل جميع من يشغلون المناصب الرئيسية بمراكز الشرطة فى وقت واحد، كما حدث بالنسبة لمركزهم .

أحاط رئيس المباحث زميله بأنه نقل أثاث منزله بقطار البضاعة، وينتظر أن يصل الأثاث خلال يوم أو يومين . واستعلم من زميله عن ظروف الشقة المخصصة له، فأجابه بأنها فى الطابق الرابع، بإحدى عمارات مجلس المدينة الجديدة، و هى قريبة من المركز، وكانت مخصصة لرئيس المباحث السابق، كما أحاطه بأن مفتاح الشقة معه، ولكن يلزم تحرير عقد إيجار جديد مع رئيس مجلس المدينة، حيث إنها سكن إدارى .

أشاد رئيس المباحث بخُلُق رئيس مجلس المدينة هذا، فهو رئيسه السابق لمباحث المحافظة التى كان يعمل بها بالوجه البحرى، حيث تتلمذ على يديه ويعتبره مثله الأعلى والقدوة له، و يتمنى رؤيته اليوم .

انتقـلا بـالحديث بعـد ذلك، عن العمل بوحـدة المباحـث، فقـدم ضـابـط المباحث لرئيسه بعض الموجودين من العاملين بالمباحث، حيث رحبوا به و رد عليهم رئيس المباحث بكلمات تشجيع للعمل، طالبا منهم عرض المشكلات التى تواجههم؛ ليعمل بقدر استطاعته على تذليلها.

عرض عليه " بلوكامين " المباحث بعض الأوراق العاجلة للتوقيع عليها، فطلب منه رئيس المباحث سرعة عرض أوراق جميع المحجوزين بالمركز، يدفعه إلى ذلك حب استطلاع لمعرفة موقف هؤلاء الرجال والنسوة، الجالسين على سطح المبنـى . كمـا طلـب منه إعداد إحصائيات عن الموقف الجنائى، موضحا به عدد الحوادث المختلفة والقضايا المهمة التى لم يتم ضبط المتهمين فيها أو لم يتم معرفة حقيقة الحادث بعد؛ لِتُعْرَضَ عليه فى اليوم التالى .

عرف رئيس المباحث أن مجموعة الرجال التى شاهدها تجلس على الأرض بسطح المبنى، غير مثبت أى شىء عنهم بدفتر الحجز، كما تبين له أن النسوة اللاتى يجلسن بجوارهم، هن زوجاتهم، و أنهن يحضرن للزيارة يوميا، و معهن الطعام؛ لذا فقد كان رئيس المباحث مُحِقًّاً فى طلبه بأن تعرض أوراق المحجوزين بالمركز عليه فى بداية عمله، فقد حدثته نفسه عندما شاهد هؤلاء الرجال و النسوة يجلسون هكذا، ضرورة أن يعرف حقيقة وضعهم

أوضح ضابط المباحث لرئيسه، مجيبا عن استفساره بشأن حجز هؤلاء دون إثباتهم بالدفتر المعد لذلك، متجاوزين بذلك مدة الحجز القانونية، بأن هؤلاء الرجال، من عائلة "فاروق"، والتى توجد خصومة ثأرية بينهم و بين عائلة عمدة قريتهم "الشيخ عماد" لسبق اتهامهم بقتل ابن العمدة .

ثم أضاف بأن " أولاد فاروق " هؤلاء، أُتُهِمُوا منذ مايقرب من عشرة أيام فى حادث شروع فى قتل أحد المواطنين بنفس البلدة، وتم ضبطهم بناء على ما جاء بالإشارة التليفونية الواردة من عمدة القرية و بها أن المصاب اتهمهم، شفاهة، بالشروع فى قتله، حيث أمرت النيابة بضبطهم، لكن المصاب عندما أمكن استجوابه بمعرفة النيابة، قرر بأنه أصيب من عيار طائش أثناء مروره بالزراعات، و لم يشاهد أو يعرف من أطلقه، و أنه لاتوجد خصومة بينه وبين أحد بالبلدة، فأمرت النيابة بالإفراج عن المتهمين، بضمان محل إقامتهم .

عندئذ طلب المأمور السابق، حجزهم عدة أيام بحوش المركز؛ تأمينا على حياتهم، حيث يخشى فى حالة خروجهم قتلهم، خاصة أن العمدة نبّه بأن عائلة المصاب سوف تنتقم منهم.

ثم أضاف ضابط المباحث فى حديثه قائلا :

ـ أنا لاحظت هنا ياأفندم، أن كثيرا من العمد و المشايخ، و بعض الأهالى، عندما يتعرفون على بعض صغار الضباط، ممن يتم تعيينهم فى نقط الشرطة أو بالمركز، لا تنقطع صلتهم بهم حتى بعد نقلهم ...

و إلى أن يصبحوا فى رتب عليا، و فى مناصب كبيرة، وهذا العمدة من هذه النوعية ياأفندم، فهو على صلة وثيقة حاليا ببعض كبار الضباط بالوزارة من الذين كانوا يعملون وهم برتب صغيرة بالمركز، و كثير منهم كانوا يوصون المأمور على العمدة، خاصة بعد مقتل ابنه فى حادث مع عائلة "أولاد فاروق".

ثم أكمل ضابط المباحث حديثه قائلا :

ـ أنا أعتقد ياأفندم، أن المأمور استجاب لتحذير العمدة بحجز هؤلاء المتهمين بعد الإفراج عنهم؛ ليتحاشى سيل توصيات بعض كبار الضباط بالوزارة من معارف العمدة، خاصة أن الحادث وقع قبل صدور حركة التنقلات بعدة أيام وكان المأمور يود تهدئة الحالة متمنيا الاستجابة لطلبه بنقله إلى القاهرة.

عندئذ طلب رئيس المباحث من " البلوكامين " بيانا بسوابق واتهامات هؤلاء الرجال، فتبين له أنهم سبق اتهامهم فى جناية قتل واحدة، و هى حادث مقتل ابن العمدة، و ثلاث جنايات أخرى شروع فى قتل، أحاط ضابط المباحث رئيسه بأن هؤلاء الرجال، لم يحاول أحد منهم الهرب، حيث أنهم موجودون بحوش المركز أو سطحه و ليسوا بداخل الحجز .

أمر رئيس المباحث "البلوكامين" بإدخال هؤلاء الرجال إلى مكتبه وجدهم فى سن متقاربة، سُمر الوجوه، حليقى الذقن، لهم شوارب كثيفة، قريبى الشبه من بعض، ولاعجب، فهم أشقاء، ملابسهم رقيقة الحال، ترك الحزن أثره على وجوههم بعلامات بؤس وفقر، كانت على شفاههم ـ عندما تحدث إليهم ضابط المباحث ـ عبارة واحدة يرددونها :

ـ مظلومين يا بك... الحوادث لفقها لنا العمدة .

بسرعة أخذ رئيس المباحث يتفحصهم، مركزا بصره عليهم، فهو يريد أن تطبع أشكال وجوههم فى ذاكرته؛ ليسترجعها عند اللزوم، بـدأ حديثه معـهم
جادا، مهددا و محذرا لعدم معاودة إرتكاب أية جرائم أخرى، ثم خفت حدته و مال إلى كسب ودهم، بالاستماع إليهم ومستفسرا عن موقع مساكنهم من من البلدة، فعلم منهم أنهم يقيمون سويا، بعيدا عن البلدة، من الناحية الشرقية أسفل الجبل .

طلب من " البلوكامين " إعداد الأوراق و الملفات الخاصة بهم، حيث قرر أنه سيبحث فى المساء وضعهم، وأصل الخصومة مع عائلة العمدة، و كذا الخصومة الجديدة مع المصاب الذى اتهمهم العمدة بإصابته .

عندئذ أجابه أحدهم :

ـ ليس لنا خصومة مع أحد يا بك، غير خصومة العمدة، كل الاتهامات، العمدة لفقها لنا؛ لينتقم منا .

بعد ذلك أمر رئيس المباحث "البلوكامين" بإخراجهم من الحجرة ثم استعلم من ضابط المباحث عن ترتيب المركز بالنسبة لمراكز المحافظة بشأن تنفيذ الأحكام، أجابه ضابط المباحث قائلا:

ـ أمر محزن ومخجل ياأفندم . ترتيب المركز هو الأخير منذ سنوات ..

ـ أبدا ... أبدا ... إن هذا سيشجعنا على العمل، وهو أمر طيب على كل حال لإظهار جهدنا... و أتعشم أن يُعْرَضَ علىَّ مساء الغد الإحصائيات الشهرية مع أفراد تنفيذ الأحكام؛ لأتابع جهودهم خلال هذا الشهر .

ثم استطرد رئيس المباحث فى حديثه لمعاونه قائلا :
ـ أرجو أيضا متابعة مندوب التجنيد سويا فى صباح باكر، وعليه أن يعرض علينا موقف التجنيد و ترتيب المركز أيضا بالنسبة لمراكز المحافظة .
رد عليه ضابط المباحث وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :
ـ نفس الشىء ... الأخير أيضا ياأفندم ... و منذ سنوات!!.

رن جرس التليفون الموجود على مكتب رئيس المباحث، كان المتحدث هو المأمور، يدعوه للنزول إلى مكتبه، هو وضابط المباحث، فقد حضر لزيارته وكلاء النيابة للتحية .. إن هذه التقاليد الجميلة، بتبادل الزيارات الودية، ترحيبا بالقادم الجديد، لها سحرها فى تحسين وتوطيد العلاقات الطيبة بين الأجهزة المختلفة، و تؤثر إيجابا على العمل .

ينزل رئيس المباحث وزميله على الفور، حيث يتقابل الجميع فى مكتب المأمور، ترحيب متبادل من الجميع، يحضر اللقاء نائب المأمور العائد لتوه من مأمورية، يتضح أنه محبوب، و معروف بقفشاته وضحكاته للجميع، حيث كان يعمل معاونا للشرطة بالمركز قبل تعيينه فى هذه الحركة نائبا للمأمور .
امتلأت حجرة المأمور ببعض الزائرين الجدد، من الشخصيات المعروفة بالمركز .. أمين الاتحاد الاشتراكى .. مدير المستشفى الأميرى .. مدير الزراعة .. الطبيب البيطرى . . بعض الأعيان و عمد المركز ..

انصرف وكلاء النيابة، ودعهم المأمور والضباط ... أخبرهم المأمور بأنه سيشرب القهوة معهم باكرا بسراى النيابة ... بعدها انصرف الزائرون، بعد أن قدموا التحية للمأمور وللضباط الجدد.

علم رئيس المباحث بوجود رئيس مجلس المدينة بالنادى المواجه لمبنى المركز، استأذن من المأمور لزيارته، أخبره المأمور بأن رئيس المدينة كان قد زاره أمس بالمكتب، و أنه سأل عليه، ومدح فيه كثيرا، و فى عمله ...

كان لقاءً حارا بين رئيس مجلس المدينة ورئيس المباحث ... جلسا سويا بالنادى بعض الوقت، تذكرا عملهما معا بالوجه البحرى .. أبدى له رئيس المدينة نصائح كثيرة، أخبره بأن للصعيد تقاليده، و التعامل فيه يختلف عن التعامل فى الوجه البحرى فى أمور عديدة، استمع لنصائحه رئيس المباحث، شكره وانصرف، حيث كانت الساعة تقترب من الثالثة مساءً، و قد تجمع الضباط؛ ليتجهوا إلى مكان الوليمة التى أقاموها لرئيس المباحث والضباط الجدد، فَضَّلَ بعضهم التوجه للاستراحة سيرا على الأقدام؛ لقصر المسافة ...

يكتشف ضابط المباحث أن أحد رؤساء نقط الشرطة المدعوين لم يحضر بعد رغم سؤاله عنه من عامل تليفون النقطة الذى أخبره بأنه غادر النقطة متوجها للمركز بالسيارة منذ مايقرب من ساعة تقريبا و أن بعض الضباط حاولوا الاتصاال بجهاز اللاسلكى الموجود بالسيارة، لكن لم يجاوبهم أحد .

شعر الجميع بالقلق، لأن المسافة بين النقطة و ديوان المركز لاتستغرق إلا ربع ساعة تقريبا بالسيارة، لكنهم أخفوا شعورهم بالقلق هذا؛ حتى لايفسدوا جو الاحتفال بقدوم رئيس المباحث والضباط الجدد فى هذه الحركة .

و توجه الجميع إلى استراحة المدينة، حيث الوليمة التى أقامها الضباط القدامى لزملائهم الجدد ... و هو تقليد متبع منذ سنوات، يتوارثونه جيلا بعد جيل ... مما يجعل الحياة لها طعم جميل فى جو الغربة الذى يعيشونه، خاصة فى بداية أيامهم الأولى بالعمل فى الصعيد .

(٣) الوليمة

وصل الضباط إلى استراحة مجلس المدينة، بعضهم كان مترجلا لقربها من ديوان المركز، بينما استقل البعض الآخر السيارة. تبين أن الاستراحة عبارة عن شقة بمبنى مجلس المدينة المكون من ثلاثة أدوار، وتقع بالدور الثالث وهى مكونة من أربع حجرات كبيرة نسبيا، إحداها مخصصة "كصالون" وبقية الحجرات للنوم، وبها صالة فسيحة، تتوسطها مائدة كبيرة، يحيط بها عشرة مقاعد خشبية مبطنة بالجلد، وبجوارها، عدد من "الفوتيهات"، وقد زينت الصالة ببعض اللوحات التى علقت على جدرانها .

أشار ضابط المباحث إلى إحدى الحجرات البحرية، ثم وجه حديثه لرئيس المباحث قائلا :

ـ حجرة سيادتك هنا يا أفندم .

اتجه إليها رئيس المباحث، فوجدها حجرة بها نوافذ تطل على الناحية البحرية، بها سرير أبيض.. مغطى بالملاءات البيضاء . و بها كرسيان ودولاب صنعوا من جريد النخل، و هى صناعات يدوية تشتهر بها تلك المناطق. كما وجد حقيبتيه موجودتين بجوار الدولاب، ولاحظ وجود شماعة لتعليق الملابس مثبتة على أحد الجدران، و رغم بساطة الأثاث بها، فقد استراح رئيس المباحث نفسيا منها، حيث وجد كل شىء بها نظيفا .. خاصة بعد أن أكمل جولته بأنحائها .

جلس الجميع على الكراسى "الفوتيهات" الموجودة بالصالة باسترخاء؛ ليستمتعوا بالجو اللطيف نسبيا .. فأرضيتها من البلاط، و أنعش الجو تيار الهواء القادم من النوافذ البحرية فشعر الجميع بالفارق الهائل بين درجتى الحرارة بداخل الصالة والجو بالخارج .

بدأ فرَّاش الاستراحة - وهو فى نفس الوقت الطاهى المخصص لها - فى إعداد المائدة بهمة ونشاط، بينما عيون رئيس المباحث تتابعه هو وبقية الضباط .. ويذكرهم أحدهم بأنه شبيه لأحد العاملين بمطعم الكلية حينما كانوا طلبة.. فيبتسمون، ويؤكدون على أنه يشبهه تماما. بينما الطاهى فى ذهابه وإيابه مابين المطبخ و الصالة لايلقى نظره على الموجودين،كان طويل القامة، أسمر اللون، يرتدى جلبابا أبيض قسمات وجهه يعلوها الجد، لا يبتسم، نظره فى اتجاه الأرض دائما . كل من تعامل معه من قبل أحب "عم أحمد" ... فراش الاستراحة .

تحدث عنه أحد الضباط لرئيس المباحث قائلا أنه يجيد الطهى، والطعام الذى يقدمه له مذاق طيب و شهى .. علق على حديثه أحدهم بقوله :

ـ نحن لا نجىء إلى هنا إلا وقت تقديم الطعام .. وقت الغذاء .. ويكون الطعام قد أُعِدَّ.. فإن كان لابد من الشكر، لإجادة الطهى، فليقدم لأهل بيته، لأنهم هم الذين يعدونه غالبا .

أوشك الطاهى على الانتهاء من إعداد المائدة التى وضعت عليها الأوانى الفخارية المملوءة بالأرز المعمر.. والصوانى التى بها عدد لابأس به من الدجاج المحمر، تتصاعد منه الأبخرة برائحة طيبة، و نكهة التوابل تفوح من بقية الأطعمة و الأصناف الأخرى .. كل هذه الروائح دعت البطون الخاوية للانقضاض على المائدة، فور أن وجه ضابط المباحث حديثه لرئيس المباحث للتفضل بالجلوس فى صدر المائدة .

ساد الصمت فترة .. وانشغل الجميع بالتهام الطعام .. ذكرهم أحدهم بأن يتركوا نصيبا لزميلهم الغائب رئيس النقطة .. كان هذا سبباً لإعادة التساؤل عن أسباب تأخره فى المجىء حتى الآن، بالرغم من مغادرته لنقطة الشرطة منذ مايزيد عن الساعة . وأثناء تساؤلهم هذا يدخل عليهم معتذرا عن التأخير ... سألوه معا فى نفس الوقت :

ـ خير؟؟.. لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

ـ أعطونى الأكل أولا... ثم أحكى لكم .

ـ العربة تعطلت؟

ـ لأ ... أنا جائع ... و أريد الاستمتاع بطعم الأكل .

ـ هل تعطل جهاز اللاسلكى بالسيارة؟

ـ نعم .. يظهر أنه لافائدة أمام فضولكم .. سأحكى لكم باختصار .. فور تحركى بالسيارة من النقطة تقابلت مع أحد الأشخاص الذى كان يهرول ناحيتى مشيرا لى بالوقوف؛ ليخبرنى بأن شقيقته الصغرى بإحدى العزب التابعة للنقطة قد أُصِيبت بلدغة عقرب، ويطلب منى إبلاغ المركز، ليرسل عربة الإسعاف بالحضور لنقلها، فرأيت أن الوقت لن يكون فى صالح المصابة.. فربما تكون سيارة الإسعاف الوحيدة معطلة أو فى مأمورية فأخذت المـُبَلِّغَ معى وتوجهنا إلى العزبة التى بها المصابة، و كان الطريق إلى العزبة غير ممهد فاستغرق ذلك وقتا إلى أن أحضرتها إلى المستشفى ...

ـ تصرف تُشكر عليه .
حدثه رئيس المباحث .
ـ العفو يا أفندم .. وحمدا لله على السلامة .. ومعذرة لعدم الترحيب بسيادتك أولا، سمعنا عنك كل خير .
التقط ضابط المباحث خيط الحديث بعد ذكر حادثة لدغ العقرب للفتاة قائلا :
ـ الجو حار جدا هذه الأيام .. والعقارب والثعابين تنشط وتخرج من جحورها ...
ثم وجه حديثه لرئيس المباحث قائلا :
ـ نصيحة يا أفندم .. قبل أن تنام .. يلزم تفتيش الحجرة .. و تفتش السرير .. و أسفل المخدات .. وقبل أن تلبس الحذاء تفتشه من الداخل .. اضرب الحذاء بالأرض ..فأحيانا العقارب تحب السكن داخل الأحذية . و عندما تنام يا أفندم اغلق النوافذ... ولاتجعل ملاءة السرير تصل إلى الأرض، حتى لا تصعد عليها إحدى العقارب!!

كان لهذا الحديث الوقع السىء في نفس رئيس المباحث .. فامتعض وجهه خاصة بعد أن تبارى الجميع فى إسداء النصائح له، وللضابطين الجديدين .. وبدأ كل القُدَامَى يروون حكايات تؤكد ضرورة الالتزام بتلك النصائح ... بل بدأ البعض يقص حكايات مثيرة وكيف أن دوريات السوارى الليلية كانت لاتستطيع المرور للوصول لإحدى القرى، حيث أن ثعبانا ضخما يعترض الطريق الزراعى ـ المؤدى إلى القرية ـ بالعرض..

وكانت الخيل بالدورية تراه ليلا فى الظلام فتخاف و تصهل وترفع قدميها الأماميتين لأعلى ولا تستطيع أن تتقدم فكانت الدورية تعود دون تكملة خط السير المقرر عليها.
بينما يحكى ضابط آخر من القدامى حكاية أخرى قائلا :
ـ لكن .. ما رأيكم فيما يحدث بإحدى القرى التابعة للمركز .. فيقال أن تلك القرية لم يُلدغ أحدٌ من ساكنيها قط من العقارب أو الثعابين .. و يقال أن هذه القرية لم يَرِد منها أبدا للمركز أى بلاغ بإصابة أحد بأية لدغة سامة بالرغم من وجود عقارب بها!!
يعزز قوله أحد الضباط الآخرين :
ـ هذا صحيح ... و سمعت أنا أيضا ذلك ..
ويقول ثالث :
ـ يقال أن هذه القرية كانت معبدا من أيام الفراعنة .. و أن الكهنة منذ القدم قد أحاطوها برعاية خاصة، بأن قاموا بعمل سحر يمنع لدغ العقارب والثعابين للموجودين فى نطاق المعبد، والذى أصبح الآن مكانه تلك القرية!! .

انتهى الجميع من تناول طعامهم .. ثم ألقوا بأجسامهم ثانية على "الفوتيهات "...
يتناول بعضهم البطيخ المثلج .. بينما آخرون يتناولون المرطبات المثلجة .. وقليل منهم فَضَلَّ الشاى الثقيل، فهو الذى يمنع الاحساس بالعطش .. وكانوا وهم على حالهم هذا يتناوبون إلقاء " القفشات "، و ترتفع أصواتهم بالضحكات .. بينما جميعهم أخذوا فى الشكر والثناء لعم أحمد؛ لإعداده تلك الوجبة الدسمة اللذيذة .

و ينبرى أحد الضباط ـ برتبة الملازم ـ ليعرف رئيس المباحث بأنه هو أيضا وراء هذا الجهد؛ فهو الذى اختار قائمة الطعام ليعدها الطاهى وأنه هو الذى يشرف على إطعام الضباط الغير متزوجين، ويسأله رئيس المباحث :

ـ مجهود طيب تشكر عليه.. ولكن ما نصيبى الذى علىَّ أن أدفعه، لأساهم به فى هذا الغذاء؟

ـ و لا مليم واحد .. سيادتك يا أفندم لن تضع يدك فى جيبك لمدة ثلاثة أيام سيادتك معفى من الدفع هذه المدة .. وهذا حدث معى ومع جميع الضباط ممن تراهم الآن أمامك.

ـ لكن ...

ـ ولا لكن يا أفندم.. هذه تقاليد جميلة، يجب أن نحافظ عليها، ونستمر فيها.

هَمّ رئيس المباحث واقفا، مستأذنا منهم أن يخلع ملابسه، ويستحم ليرتاح قليلا... وأثناء ذلك سمع الجميع طلقات رصاص فى دفعات متتالية من مصدر قريب للاستراحة، استرعت انتباه رئيس المباحث، فنزل على الفور و معه بعض الضباط، وساروا قليلا فى اتجاه مصدرها .

(٤) الشهادة

أسرع رئيس المباحث، وبصحبته بعض الضباط إلى مصدر صوت الطلقات التى سمعوها، بينما اتصل أحدهم تليفونيا بالمركز لتوجيه إحدى السيارات "الجيب" المخصصة للمرور بالمنطقة للحضور، حيث إن السيارة "الجيب" التى أوصلت الضباط عادت إلى ديوان المركز؛ لتغيير نوبة الخدمة لأفراد طاقمها، و لتناولهم الغذاء بالمركز، والتزود بالوقود، ثم الانتظار لحين توجيهها وفق خطوط السير المحددة لها .

لم يبتعد رئيس المباحث ورفاقه كثيرا عن الاستراحة، فقد ساروا خطوات قليلة بنفس الطريق المتسع الموجود به مبنى مجلس المدينة وسراى النيابة والمستشفى العام .

شاهدوا رجلا فى الخمسين من عمره تقريبا، ملقى على الأرض، و تنزف منه الدماء، حالته خطيرة و يوشك أن يفارق الحياة . اقترب منه رئيس المباحث لعله يتمكن من سماع كلمة واحدة منه تشير إلى معرفة شخصية الجناة، لكن الرجل المضرج فى دمائه، لا ينطق ...

طلب سرعة إدخاله المستشفى لمحاولة إسعافه ... أدى الخفير المخصص لحراسة المستشفى التحية لضابط المباحث، الذى سأله عن معلوماته، متهكما بقوله :

ـ طبعا ... شاهدت الحادث ياعم عواد؟

ـ لا يا بك... أنا كنت ساعتها بداخل المستشفى وحضرت على سماع صوت الطلقات.

ـ ألم تشاهد شيئا نهائيا؟
ـ شاهدت المصاب ملقى على الأرض بهذه الحالة يا بك .
ـ ألم يكن أحد معه؟
ـ لا أعرف .
ـ هل شاهدت أحدا من المتهمين و هو يطلق النار؟
ـ لأ .
ـ و لا وهم يفرون بعيدا؟
ـ لأ .. لأنى وصلت بعد انتهاء الضرب .
ـ يا خفير أنا أسألك، وأعرف إجابتك مقدما بأنك لم تشاهد الحادث ولا المتهمين ...حتى لو كنت شاهدت الحادث فعلا .

ثم وجه حديثه لرئيس المباحث قائلا :
ـ أنا أردت أن أُعَرِّفَ سيادتك بأن الشهادة فى مثل هذه القضايا صعب الحصول عليها، إلا إذا كان المصاب أو القتيل من الأقرباء للشاهد فقط .

لاحظ رئيس المباحث، أن فى مواجهة باب المستشفى، يوجد كشك خشبى يبيع فيه صاحبه السجاير والحلوى للمترددين على مرضى المستشفى للزيارة، فاعتقد أنه حصل على صيد ثمين .. فسار إلى الكشك بمفرده .. حيا صاحب الكشك مبتسما، بعد أن عَرَّفَهُ بنفسه ثم سأله :
ـ يا حاج ... يا ترى تقدر تحكى لنا عن الحادثة؟
ـ حادثة؟؟ ... خير إن شاء الله .
ـ نعم؟؟ .. الحادثة التى وقعت أمامك .

ـ أنا فى حالى دائما ... و ليس لى دخل فيمالا يخصنى .
ـ ألم تسمع طلقات الرصاص؟
ـ سمعت، لكن ليس لى دخل بها يا بك .
ـ هل شاهدت الذين أطلقوها؟
ـ لأ.. أنا بداخل الكشك، وساعة الضرب أغمضت عينى، وأحنيت رأسى لأسفل، و لا أعرف ماذا حدث بعدها .
ـ ياحاج .. هل تعلم إثم من يكتم الشهادة؟
ـ أنا فى حالى يابك.. ولا أحب أن أتدخل فى خصوصيات الناس.

لحق ضابط المباحث برئيسه، و قد سمع جزءاً من حواره مع صاحب الكشك، و هو يحاول إقناعه للإدلاء بشهادته، أو حتى تقديم معلوماته عن الحادث، لتأكده من أن موقع صاحب الكشك يسمح له برؤية الحادث جيدا .

عَقَّبَ ضابط المباحث على محاولته هذه بقوله :

ـ لا فائدة ياأفندم .. فى قضايا الثأر .. لا يتقدم أحد للشهادة؛ إلا إذا كان من عائلة المصاب أو القتيل.. الذى يتقدم فقط يكون من أسرة المجنى عليه، وأيضا بالنسبة للطرف الآخر، فلا يتقدم أحد لنفى الاتهام عن المتهمين إلا أقرباء المتهمين .

ثم عرض على رئيس المباحث بعض الطلقات الفارغة، التى عثر عليها بنفس المكان، ويرجح أنها استخدمت فى الحادث، ليقدمها للنيابة، بعدها سلمها لأحد رجال الشرطة السريين، الذى حضر مع السيارة " الجيب "، التى وصلت فور استدعائها لموقع الحادث.

بحجرة مدير المستشفى، جلس رئيس المباحث وزميله مع الطبيب المقيم، حيث أخبرهما بأن المصاب توفى، و سلمهما إخطارا من المستشفى، مثبت فيه "حضر إلى المستشفى المواطن/ فلان الفلانى، من بلدة كذا، جثة هامدة ".

وقد أثبت اسمه من واقع بطاقته العائلية التى كانت بطيات ملابسه.

علق رئيس المباحث على الصيغة المحرر بها الإخطار لذكر عبارة "حضر جثة هامدة "، فابتسم ضابط المباحث، و قال :

ـ إنهم فى المستشفى يخطرون بإحصائية لمديرية الصحة عن حالات الوفاة التى تتم بداخل المستشفى من بين النزلاء من المرضى و المصابين؛ فهم لا يريدون زيادة نسبة الوفيات من نزلاء المستشفى، فيذكرون بأنه حضر جثة هامدة!! أى أنه توفى قبل دخوله المستشفى !!

صمت برهة ضابط المباحث، ثم أضاف :

ـ حادثة القتل هذه، غالبا بسبب خصومة ثأرية.. وسوف أتأكد فورا بذلك عند عودتى للمركز .

ثم عرض على رئيس المباحث بأن يتوجه للاستراحة؛ لأخذ الحمام الذى كان يبتغيه، بينما يذهب هو إلى المركز؛ لإعداد الإخطار عن الحادث ...

ظهر على وجه رئيس المباحث التردد .. عندئذ قال له ضابط المباحث :

ـ لا تخش شيئا يا أفندم .. إن كل ضابط صغير هنا يعرف تماما كيفية كتابة الإخطارات فى الجنايات وتحرير محاضر ضبط الواقعة لها .. لأن معظم الحوادث هنا جنايات قتل أو شروع فى قتل؛ بسبب الخصومات الثأرية وسأقرأ الإخطار للمأمور فى منزله .

ـ أفضل أن نذهب معا للمركز .. لمتابعة الإجراءات اللازمة للحادث وغالبا سيحضر أحد كبار المسئولين بالمديرية، أو يتصل تليفونيا، وليس من الكياسة عدم استقباله فور وصوله أو عدم الرد عليه مباشرة عند اتصاله تليفونيا... أما الحمام، فرغم حاجتى إليه ... فلنؤجله لبعد ذلك .

ـ يا أفندم لن يحضر أحد، فحوادث القتل للثأر كثيرة فى المحافظة هذه الأيام ... نحن فى موسم الذُرة ... ولا يتم انتقال كبار المسئولين إلا فى الحوادث المهمة .

ـ و أليست جناية القتل حادثة مهمة هنا؟

ـ إنها قتل بسبب الثأر ... أما الحوادث المهمة هنا، فهى الخطف والسرقة بالإكراه، أو كون المجنى عليه ذا حيثية، أو من إحدى الأسر الكبيرة، والذى غالبا ما يكون لقتله رد فعل فورى .. أو يكون عدد القتلى و المصابين كبيرا .

تعجب رئيس المباحث قائلا :

ـ هل تعرف أن حادثة الجرُح النافذ ـ فى الوجه البحرى ـ من الحوادث المهمة و ينتقل إليها المفتشون بالمديرية !!

يتوقف الحديث بينهما للحظة .. ثم ينهضان، و يودعان طبيب المستشفى بينما يلقى رئيس المباحث تعليماته للشرطى السرى، الذى حضر لموقع الحادث ليستمر فى موقعه؛ لجمع التحريات عن كيفية وقوع الحادث، ويعرضها عليهما فورا . ثم يستقل رئيس المباحث وزميله، السيارة "الجيب" ويصلان إلى مكتبهما.

جلس ضابط المباحث بجوار رئيسه، يحرران سويا إخطار الحادثة، بعد أن أخبرا المأمور ـ تليفونيا ـ بمنزله عن ظروفها، وقد تأكدا من أنها بسبب خصومة ثأرية بين عائلة القتيل وإحدى عائلات القرية ...

كان رئيس المباحث قد تأكد بنفسه .. فتصفح أوراق دفتر المصالحات ... ثم تمهل مركزاً على هذه الخصومة ... فتبين له، أنها سبق أن عُقِدَ لها مجلس للصلح، حضره نائب مأمور المركز، و رئيس نقطة الشرطة، و العمدة و أمين الإتحاد الاشتراكى بالبلدة، وآخرون وطرفا الخصومة .

تساءل رئيس المباحث متعجبا :

ـ إن هذه الخصومة عُقِدَ لها مجلس صلح ... فكيف يحدث هذا؟

ـ أمر طبيعى ياأفندم ... فالخصومة هنا لم تتساوَ فيها الرؤوس .. فالصلح غير جدى .

تذكر ساعتها رئيس المباحث، ماذكره الشرطى السرى، الذى أوصله بالسيارة، صباح اليوم لديوان المركز، حيث سمع منه لأول مرة عبارة تساوى الرؤوس .

ثم يستأنف حديثه مع ضابط المباحث قائلا :

ـ لكن العجيب ... أن طرفى الخصومة وَقَّعَا على المحضر الخاص بالصلح!

ـ بعض المصالحات تكون ستارا، لتلبية مصالح أخرى .
ـ كيف؟
ـ ربما يكون لطرفى الخصومة أفراد محكوم عليهم بالسجن أو الأشغال الشاقة فى قضايا الثأر .. و يريدون الإفراج عنهم، بعد انقضاء ثلاثة أرباع المدة فيقدمون التماسات للجهات للإفراج عن ذويهم المسجونين، ويذكرون أن العائلتين قد تصالحتا، فإذا خاطبت تلك الجهات المركز للتأكد من صحة ذلك أجبناهم حقيقة بأنهم تصالحوا .

ثم استطرد قائلا :

ـ أو قد يكون للطرفين أفراد أُعتُقِلُوا، بسبب هذه الخصومة الثأرية، ويودون إلغاء أمر الاعتقال؛ لانعدام أسبابه، بالصلح الذى تم .

ماكاد الضابطان يفرغان من صياغة الإخطار، إلا و يحضر للمركز أحد أفراد أسرة القتيل، قرر أنه ابن عمه، و قدم لهما بلاغا مكتوبا على ورقة كراسة، بخط ردىء، تضمن أنه أثناء سيره مع ابن عمه بالطريق العمومى المؤدى بعدها للزراعات، وقرب المستشفى الأميرى، شاهد أربعة أشخاص، حددهم الـمُـبَلِّغ بالاسم، و جميعهم من عائلة المتخاصمين معهم، كانوا يحملون أسلحة نارية متنوعة، و أطلقوا النار على ابن عمه، فأردوه قتيلا، بينما لاذ هو بالفرار .

سأله رئيس المباحث عن نوع الأسلحة التى معهم، فأجابه الـمُبَلِّغ بأن الأول يحمل بندقية رصاص، و الثانى بندقية خرطوش، والثالث مسدس، بينما الرابع كان بيده " فرد روسى" صناعة محلية .

تشكك رئيس المباحث قليلاً فى رواية الـمُـبَلِّغ، لوصفه تلك الأسلحة بهذه الدقة، لكنه عَدَّلَ الإخطار الذى حرره، و أضاف إليه تلك المعلومات الجديدة، التى ذكرها الـمُـبَلِّغ .

ما إن فرغ رئيس المباحث من كتابة الإخطار، إلا وحضر مأمور المركز لمكتبه، من سكنه المجاور لمبنى المركز، حيث عرضـه عليه، فوقعه لإبلاغه لمديرية الأمن وإدارة البحث الجنائى بإشارة تليفونية، وإرسال الإخطار لوكلاء النيابة المقيمين بنفس سراى النيابة .

أمر وكيل النيابة، الذى سيباشر التحقيق، بأن يتم التحقيق بسراى النيابة مساء اليوم، ونـبه بإحضار الـمُـبَلِّغ وشهود الحادث إن وجدوا، للتحقيق، مع إخطار سكرتير التحقيق المنوب للحضور.

انصرف رئيس المباحث، بعد ذلك، متوجها للاستراحة، لأخذ حمامه، ليجدد نشاطه حيث كان يتصبب عرقاً من شدة الحرارة و بعدها يعود ثانية للعمل فى الفترة المسائية، حيث وضع فى ذهنه برنامج عمل طويل، بينما استمر ضابط المباحث يتابع بقية الإجراءات المطلوبة فى هذا الحادث بالنيابة .

لم يستغرق تغيب رئيس المباحث عن مكتبه، إلا قليلا، عاد بعدها أكثر حيوية و نشاطا و قد حضر بقية الضباط، و القوات للعمل بالفترة المسائية، كما عاد بعدهم بقليل ضابط المباحث بعد أن انتهت النيابة من سؤال الـمُبَلِّغ، و قررت طلب تحريات المباحث عن الواقعة، كما طلبت ضبط المتهمين والأسلحة المستخدمة فى الحادث .

استدعى رئيس المباحث، رقيب أول المباحث، و طلب منه أن ينشىء لكل حادثة ملفا يودع به كل مايتعلق بالحادث، و طلب من ضابط المباحث متابعة تنفيذ ذلك، والبدء فورا بحادثة اليوم .

طلب أيضا ـ من الرقيب أول ذاته ـ أن يعرض عليه بالمكتب، جميع المُفرَج عنهم، فى القضايا المخلة بالأمن، وأوراق المخلى سبيلهم بضمان محل إقامتهم، و أن يعرض عليه يوميا، دفتر الحجز بأوراق المحجوزين، ليتابع مدة حجزهم؛ حتى لا تتجاوز المدة القانونية، تردد "البلوكامين" قليلا .. ثم قال، موجها حديثه لرئيس المباحث :

ـ هذا تعب كبير لسيادتك.. يكفيك حوادث الجنايات.. أما موضوع الحجز والمحجوزين، فهى أمور بسيطة، أتابعها أنا بنفسى ياأفندم .

ـ ألم يكن ذلك متبعا من قبل؟

ـ لا يا بك ... و ضباط المباحث ـ دائما ـ لا يحضرون للمكتب، للفترة المسائية، إلا إذا كان هناك حادثة أو تحقيق بالمكتب ... فيكفيهم العمل فى الجنايات طوال النهار، أما فى المساء، فهم يقضون وقتهم بحديقة النادى، وإن اقتضى الأمر عرض أوراق عاجلة عليهم فأقوم أنا بعرضها عليهم بالنادى .

ـ كل شيخ و له طريقة ... أنا فى أيامى الأولى هنا، و أحب أعرف كل شىء وأنا لى هدف من ذلك .

ـ حاضر يا أفندم .

خرج الرقيب أول "بلوكامين" المباحث، لينفذ ما طُلِبَ منه، فتحدث ضابط المباحث إلى رئيسه قائلا :

ـ ما ذكره الرقيب أول، صحيح يا أفندم، فمعظم الضباط، تجلس فترة المساء بحديقة النادى، بعد وقت قليل يقضونه بالمركز، و \يستمرون فى النادى، حتى ساعة متأخرة من الليل، عدا الضابط المنوب الموجود دائما وقت عمله بالنوبة، و ذلك لأن العمل فى الليل بالنسبة لشكاوى وبلاغات المواطنين تكون شبه معدومة، فعندما يعم الظلام القرى يلـزم الناس بيوتهم ويخشون الخروج لوجود خصومات ثأرية بين معظمهم، و يُرجِئُون الشكاوى والبلاغات إلى صباح اليوم التالى .

ـ و كيف يتم متابعة أعمال رجال التنفيذ، و معرفة مجهوداتهم طوال النهار؟

ـ ....

ـ وكيف يتم متابعة عمل المخبرين اليومى، بعد مرورهم بمناطقهم؟

ومتى يتم مناقشة تحرياتهم عن النشاط الإجرامى بتلك المناطق؟

ـ ....

ـ ومتى نجد الوقت للإطلاع على ملفات ذوى النشاط الإجرامى؟ إن كان النهار يستغرق كل وقت حوادث الجنايات .. فليكن المساء والليل لمتابعة الأمور الأخرى .

ـ معك حق ياأفندم .

ـ نتيجة لعدم المتابعة الجيدة .. أعتقد أن هذا هو السبب الرئيسى فى أن يكون المركز ترتيبه الأخير بين مراكز المحافظة .
ـ ربما يا أفندم ...
دخل "بلوكامين" المباحث بأوراقه و دفاتره، و عرضها على رئيس المباحث، الذى ناقشه فى بعض أمورها، ووجد أن أوراق المحجوزين سليمة، و مطابقة لما هو مثبت بالدفتر.
سأله رئيس المباحث عن"أولاد فاروق"، أجابه بأنهم بحوش المركز، فَوَجَّهَ رئيس المباحث حديثه لزميله الضابط قائلا :
ـ كم يوما قضوها بالمركز، بعد الإفراج عنهم من النيابة؟
ـ حوالى عشرة أيام ياأفندم! ... و سبق شرحت لسيادتك السبب .
ــ و هل يُخشى على الأمن، حقيقةً، من إخلاء سبيلهم؟
ـ لأ.. ولكن قلت لحضرتك أن العمدة يستغل صداقته لكبار المسئولين بالوزارة ...
قام رئيس المباحث بالتوقيع على الأوراق المطلوب التوقيع أو التأشير منه عليها، ثم شكر "بلوكامين" المباحث، وطلب حضور زميله "بلوكامين" تنفيذ الأحكام ورجاله .

بعد فترة وجيزة، دخل الرقيب "بلوكامين" تنفيذ الأحكام ورجاله كانوا ثمانية فقط ... جميعهم من أبناء الصعيد، أوضح لهم رئيس المباحث، أن هذا هو نظام المتابعة اليومى، وأنه وزميله ضابط المباحث سيقومان بالإطلاع على مجهودهم، والإطلاع على قسائم التحصيل؛ للتأكد من بذل المجهود المناسب، ليتقدم ترتيب المركز بالنسبة لمراكز المحافظة .

شعر رجال تنفيذ الأحكام أن رئيس المباحث الجديد متفهم لعمله جيدا، فما أبدوه له من مبررات أو حجج، بأنها السبب فى تأخر ترتيب المركز، فَنـَّدَها لهم ... وأوضح لهم أن هناك طرقا أخرى، كان يجب أن يسلكوها أيضا .

بعدها، أمر بانصراف قوة تنفيذ الأحكام، ثم ذهب إلى مكتب المأمور، حيث تحدث معه فى بعض الأمور، عاد على أثرها إلى مكتبه، طالبا من زميله ضابط المباحث، إعداد السيارة "اللورى"، وقوة مناسبة من الجنود المجندين، بأسلحتهم، لمصاحبته فى المرور على بعض بلاد المركز، للتعرف عليها .

نفذ ضابط المباحث هذا الأمر سريعا، فالقوات مدربة على ذلك.

....

ـ تمام ياأفندم ... القوات جاهزة، و السيارة جاهزة للتحرك .

ـ سوف تأتى معى؛ لأتعرف على بلاد المركز .

ـ يسعدنى ذلك .

ـ و سوف نوصل " أولاد فاروق" ـ فى طريقنا ـ إلى بيوتهم .

ـ الآن؟

ـ نعم ... و ماالمانع؟

ـ لا شىء ... و لكن هذا التصرف، سوف يُغضِبُ العمدة .

ـ لايهم ذلك .. يجب أن يعرف الجميع أننا مع الحق ولا نخشى أحداً غير الله .

لم يصدق "أولاد فاروق" أنفسهم بأنهم سوف يُخلى سبيلهم اليوم وأنهم سينامون ليلتهم فى فراشهم..غمرتهم الفرحة.. بكى أحدهم تأثرا.. آمنوا أن الدنيا لازالت بخير... دعوا لرئيس المباحث أن يطيل الله فى عمره .

تحركت السيارة، و بعدت عن منطقة المساكن بالمدينة، ثم سارت بالطريق الرئيسى، الذى يربط بين القرى و بعضها، تحيطه الزراعات من جانبيه، كان معظمها زراعات ذُرة . الظلام الدامس يغطى المنطقة، و لا يوجد ضوء غير المنبعث من كشافات الإضاءة بالسيارة، على هذا الضوء كانوا يشاهدون أعين بعض الحيوانات تلمع بين الزراعات .. هل هى كلاب كامنة، أم ذئاب جائعة تبحث عن فريسة؟ لا يمكن القطع بأى منها! .

خلال سير السيارة ... تحدث ضابط المباحث لرئيسه عن المعلومات التى لديه عن البلاد التى يمرون عليها؛ إلى أن وصلوا إلى القرية التى يقصدونها، حيث بيوت " أولاد فاروق "، وهى مُقامة خارج البلدة بحضن الجبل.. نزل الجميع من السيارة؛ فهى لا تستطيع السير أكثر من هذا؛ ولابد أن يقطعوا المسافة مترجلين لبيوتهم .. سار الضابطان، وخلفهما قوة من الجنود المسلحين مصطحبين "أولاد فاروق"، متجهين ناحية البيوت لتوصيلهم .. طرق الجنود الأبواب الخشبية .. لم تفتح النسوة أول الأمر، إلا بعد أن استمعن إلى أصوات رجالهن .. ومعهن الحق؛ فلقد كُنَّ مع أزواجهن منذ ساعات قليلة بالمركز، ولم تكن هناك بادرة أمل فى خروجهم اليوم .

دعوات النسوة و الرجال، تخرج من القلب صادقة لضابطى المباحث؛ بأن يطيل الله عمريهما، و يجعلهما نصراء للحق .
شعر رئيس المباحث براحة الضمير، وهو عائد؛ ليستقل السيارة و معه زميله، ومن خلفهما الجنود... حدثه ضابط المباحث، و هما يسيران قائلا :
ـ إنها ستكون صدمة للعمدة .
ـ أعرف ذلك جيدا ... بل و قصدته متعمدا .. له و لغيره .
ـ سيطير شاكيا لمعارفه بالقاهرة .
ـ فليفعل؛ لقد أخليت سبيلهم؛ لأرفع الظلم عنهم؛ و ليس لأنهم تجاوزوا مدة الحجز .
ـ إن هذه البلاد، تحتاج لمثل هذا العدل، و الحزم فعلا .
ـ آمل أن نتعاون سويا فى ذلك .
ركب الجميع السيارة، مكملين مرورهم، تابع ضابط المباحث حديثه، قائلا :
ـ إلى أين تود المرور؟
ـ أية جهة .. القصد كان أولا وصول "أولاد فاروق" لبيوتهم، آمنين، وثانيا التعرف على بعض بلاد المركز.
ـ ألا يوجد مانع فى أن نعود للمركز الآن؟
ـ لا مانع ... و لكن لماذا الأهمية الآن؟
ـ حتى لا يضيع علينا العَشَاء .

ـ لا أفهم!!
ـ فى هذا التوقيت، تقريبا، يحضر إلى النادى جميع الموظفين المغتربين، ويتناولون العَشَاء سويا ... إنهم يقضون ساعات طيبة، و هم يتناولون العَشَاء و قيمة العشاء مبلغ زهيد يدفعه كل واحد منهم بالتناوب ... و هو عشاء شهى للغاية!.
ـ مادام العَشَاء شهيا، كما تقول، فلنعد فورا .

....

....

تصل السيارة إلى مركز الشرطة، ويهبط منها ضابطا المباحث والجنود، ويثبت رئيس المباحث عودته، والقوة المصاحبة معه، بدفتر أحوال الخدمة، وهما واقفان بمدخل المركز، بعدها توجها سويا، للنادى، حيث شاهدا المناضد الصغيرة، وقد وُضِعت بجوار بعضها، مكونة مائدة طويلة، غُطِيَت بالمفارش، وجلس حولها مابين العشرين شخصا... منهم المأمور وعدد من ضباط المركز.. مدير المستشفى وبعض الأطباء .. وكلاء النيابة .. مهندس الرى .. الطبيب البيطرى .. رئيس الوحدة الاجتماعية، جميعهم من موظفى الحكومة ...تبادل ضابطا المباحث التحية مع الجالسين .. أرشدهما نائب المأمور إلى كرسيين خاليين، بجواره، قائلا أنه حجزهما لهما؛ ليجلسا بجواره.

على المائدة، وُضِعَ العديد من الأطباق المعدنية النظيفة، تحوى أصنافا من البيض المقلى المرشوش بقليل من الفلفل الأسود الناعم،

وطعمية تفوح منها رائحة التوليفة التى صُنِعت منها، و أطباق من الفول المدمس ذى اللون البنى الفاتح، بجوار أطباق عديدة من السلطات والمخللات، و زجاجات المياه الغازية ... أما الخبز، فمن النوع البلدى، جاء به صبى الفران من الفرن، يحمله على طاولة من الجريد، طازجا سخنا ... كان الإعداد جيدا و صاحب المطعم، الذى كلفوه بإحضار هذا الطعام، يذهب ويجىء بخفة و نشاط، رغم عرج خفيف بساقه اليسرى، وكان الاهتمام باديا عليه ... وَ لِمَ لا؟ أليست الحكومة، فى نظره، هى التى تتعشى؟

تناول الجميع العشاء، بنهم ولذة، وهم يستمتعون بسماعهم إلى تلك " القفشات " والطرائف، التى يلقيها نائب المأمور، ويبدو أن معظمهم، تَعَوَّدَ على الاستماع لأحاديثه الظريفة .. فما أن يسكت، إلا ويحدثه أحدهم ليذكره بنادرة ليرويها، فيقصصها عليهم ... ولاتعرف إن كان مايرويه قد حدث حقيقة، أم أنها فكاهة يحكيها بإخراج منه، كأنها قد حدثت فعلا.

كانت معظم نوادره عن "مدبولى" المجند الجديد، الذى عُيِّنَ بمكتبه، قص عليهم نادرة حدثت له من "مدبولى"، صباح اليوم.. قال :

ـ اليوم صباحا، و أنا متجه إلى مكتبى، زرت الضباط فى مكاتبهم، وجدتهم مجتمعين، يتناولون إفطارهم، دعونى للأكل معهم، شكرتهم و أخبرتهم أن زوجتى خللت ليمونا وباذنجان، طعمهما رائع، سوف أحضر لهم منه؛ ليفتح شهيتهم، كلمت زوجتى بالتليفون وأخبرتها بأن تعطى بعضا منه " لمدبولى"... ناديت " مدبولى"، وطلبت منه أن يتوجه لبيتى، وأن يحضر سريعا، ما ستعطيه له... توجه للبيت... أعطته زوجتى كرسيا ليجلس عليه خارج الشقة، لحين إعداد ماطلبته منها ... إلا أن "مدبولى" أسرع عائدا لى بالكرسى ... و يضحك الجميع .

يهمس ضابط المباحث فى أذن رئيس المباحث قائلا :
ـ سمعت هذه الفكاهة، من سنة، منه شخصيا، و من قبل أن يتم تجنيد "مدبولى" ...انــه يحكى نوادره، كما لو حدثت حقيقة .

و خلال هذه الجلسة، كان الحديث يتطرق أحيانا للعمل، فيتم شرح بعض الأمور التى قد يستفسر عنها بعض الحاضرين، و الاستئناس بالآراء القانونية فى بعض المشكلات التى تعترض صغار الضباط فى العمل ... كل هذا فى جو يؤلف بينهم، ويقربهم من بعض .

و انفض المجتمعون بعد ذلك، و سار كل منهم فى طريق، بينما سارت مجموعة وكلاء النيابة والأطباء ورئيس المباحث سويا، حيث يقيمون جميعا فى جهة واحدة، رافقهم أحد الضباط الصغار، الذى حمل عصا طويلة معه، لتوصيلهم، قائلا لرئيس المباحث :
ـ هذه العصا لإبعاد الكلاب فهى منتشرة كثيراً ليلاً فى الطرقات!

نسمات الليل المنعشة، جعلت السائرين يتهادون فى خطاهم... وكلماتهم معظمها ترحيبا برئيس المباحث، وتشجيعا له، وبأنه سوف يتأقلم فى هذه البيئة الجديدة، كما تأقلموا هم من قبل .

قابلتهم مجموعات متتالية من الكلاب الضخمة، أخذت تنبح بصوت عال كان للعصا دور مهم فعلا فى إبعادها ... ثم تفرق الجمع إلى حيث يقيم كل منهم .

....

أضاء رئيس المباحث نور حجرته، وقام بارتداء ملابس نومه، ثم توجه للاغتسال، وقبل أن يُلقى بجسده المتعب على السرير.. تذكر نصيحة ضابط المباحث؛ ليفتش الحجرة قبل النوم، فقام بالتفتيش أسفل المخدات، و نظر إلى أرجاء الحجرة باحثا ... لم يجد شيئا ... أطفأ النور و مدد جسده على السرير وبدأ يسبح فى جو ذكرياته مع الأحباء والأصدقاء .

ما كادت عيناه يداعبهما النوم... إلا واستمعت أذناه إلى حركة خفيفة فوق الجريدة الملقاة على أحد المقاعد بالغرفة.. هل يا ترى هذا الصوت لعقرب يتحرك؟ ....

هب من نومه فزعا ... أضاء النور .... أمسك فردة حذائه بيده اليمنى ... رفعها فى الهواء استعدادا، و تجول ببصره باحثا .... شاهد صرصارا فوق الجريدة ... انهال عليه ... قتله .... ابتسم ساخرا ... ثم نام نوما هادئا! .

(٥) التماثل فى الانتقام

مع نسمات الصباح الأولى، تقف سيارة "جيب" شرطة أمام استراحة المدينة، وينزل منها على عجل ضابط المباحث؛ ليعرض على رئيسه إخطاراً بحادث قتل لشخص مجهول، عن بلاغ الخفير النظامى المُعين بإحدى نقط شرطة الحراسة؛ لتأمين الطريق الرئيسى الذى يربط المركز بالمراكز الأخرى المجاورة وليتوجها سوياً لمكان الحادث، وفقاً لما تأشر على الإخطار من المأمور.

يطلع رئيس المباحث على الإخطار سريعاً، ثم يحدث زميله قائلاً :

ـ الإخطار غير موضح به وسيلة ارتكاب الحادث ... هل هى بالرصاص؟ .... أم بآلة حادة؟ ..... أم بغير ذلك؟

ـ الخفير المُبَلِّغ لم يَذكُر ذلك فى بلاغه يا أفندم ... وأنا لاحظت ذلك أيضاً وقد استفسرت منه بالتليفون، فقرر أنه يظن أن القتل تم بالسكاكين، أو بآلات حادة أو بِعُصِّى ... فتركت الإخطار مثل ما أبلغ به .

ـ و أين وجدوا الجثة؟

ـ بالطريق الرئيسى أمام نقطة الشرطة .

ـ أمر عجيب! ... و ما فائدة النقطة إذن؟

ـ إنها نقطة صغيرة ... مكونة من جندى، و أحد خفراء القرية المجاورة لها، ويعملان بنظام أربع وعشرين ساعة عمل، ومثلهم راحة بالتناوب وهى لتأمين الطريق فقط، وأُنشِئتْ بعد كثرة حوادث السرقة بإكراه، وقطع الطريق على السيارات ليلاً .

ـ أمر مؤسف! ... دقيقة واحدة .. سأرتدى ملابسى فوراً، و نكمل حديثنا فى الطريق .

فور ارتداء ملابسه، توجه رئيس المباحث وزميله للمركز، حيث كانت السيارة "اللورى" قد تم تجهيزها بقوات المجندين والمخبرين؛ استعداداً للتحرك... فركباها متجهين لمكان الحادث، بعد أن أثبت رئيس المباحث قيامه والقوات التى معه بدفتر الأحوال .

سارت السيارة بسرعة كبيرة ... كانت تنهب الأرض نهباً، فوصلت لموقع الحادث فى زمن قليل .

شاهد رئيس المباحث، و من معه فور وصولهم جمعاً كبيراً من الرجال والنساء المتشحات بالسواد، حول جثة القتيل ... و ما إن اقتربوا منهم، إلاَّ وبدأت النساء فى لطم خدودهن، و بعضهن وضعن الطين على وجوههن .. وقد ارتفع صراخهن طوال فترة معاينة الجثة ..

أبلغ شيخ الخفراء رئيس المباحث بأنه تم التعرف على شخصية القتيل، فسأله رئيس المباحث :

ـ وَ لِمَ لَمْ يتم التعرف عليه من قبل؟

أجابه شيخ الخفراء :

ـ إنه ليس من قريتنا ... من قرية مجاورة، و لم يكن معه مايثبت شخصيته، وشوهت رأسه؛ فصعب التعرف عليه أول الأمر، وتبين أنه يُدعى "على الموارد ى" بعد ذلك .

ـ و سبب الحادث؟

ـ الثأر يا بك ... الموردى كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً وأفرج عنه الشهر الماضى.. فى يولية.. خصومه انتظروا لحين خروجه من السجن.. ثم أخذوا بثأرهم منه.. لأنه كبير عائلته .. و لأن قتيلهم كان كبير عائلتهم أيضا.ً

.يعايـن رئيس المباحث الجثة ... يكتشف أن القتيل توفى نتيجة إطلاق الرصاص عليه .. وأنه تم التمثيل بجثته .. وقد عُثِرَ على عدة طلقات رصاص فارغة بالقرب من الحادث تم التحفظ عليها.

يسأل رئيس المباحث شيخ الخفراء :

ـ ألم يتهم أهل القتيل أحداً بعينه بعد؟

ـ حتى الآن ... لم يتهموا أحداً ... وزوجته وابنه موجودان بجانب الجثة .

يكلف رئيس المباحث أحد المخبرين و معه بعض الجنود بالتحفظ على مكان الحادث؛ لحين حضور وكيل النيابة للمعاينة، و كذا الطبيب الشرعى .. و يكلف مخبرين آخرين بالتوجه لقرية القتيل القريبة من هذه القرية، و ذلك لملاحظة الحالة، و عمل التحريات اللازمة بشأن هذا الحادث .

توجه ضابطا المباحث إلى نقطة الشرطة المواجهة لموقع الحادث، وهى عبارة عن حجرة صغيرة فقط من الطوب اللبن مقامة على قارعة الطريق الرئيسى ... و بها أريكة خشبية متهالكة ... جلس عليها الضابطان، وأمامهما وضعت منضدة خشبية ليست بأحسن حال من الأريكة .. و لا يوجد بالنقطة أثاث خلاف ذلك .

استدعى رئيس المباحث رقيب النقطة المعين بها، ومن الوهلة الأولى لمناظرته يتبين أنه مريض، فهو يتنفس بصعوبة، دائم الكحة، ويحدث صفيراً عند تنفسه فى الشهيق والزفير معاً... يحدثه رئيس المباحث قائلاً :

ـ أريد أن تتكلم معى بصراحة ... هل ...

ـ طبعاً يا بك ... أنا كل كلامى بالصراحة .

ـ انتظر ... انتظر ... إلى أن أُنهى كلامى ... إنك لم تكن بالنقطة أمس و إذا كنت موجوداً ... لماذا لم تُبَلِّغ أنت بالحادث وأبلغ به الخفير الذى معك والذى تجنب الإبلاغ بالحقيقة من أن القتيل مات بإطلاق الرصاص عليه .. إنكما لم تكونا بالنقطة بالليل؟ ... صح؟

و يصمت رقيب الشرطة قليلاً ... ثم يُجيب :

ـ سوف أقول الحق ...

ـ قُل ...

ـ لم نكن موجودين بالنقطة ليلة أمس يا بك ... فترة الليل فقط ... فقد ذهبت لبيتى بالبندر عند غروب الشمس ... وذهب الخفير لبيته القريب من النقطة... فأنا مريض بالربو.. ويشتد على المرض ليلاً ... و يلزم أن أكون ببيتى خشية أن تأتينى أزمة الربو... فيسعفنى أهل بيتى ويقفون بجانبى، ولقد حضرت فى الصباح؛ لأسلم زميلى النقطة، فعلمت بالحادث ووجدت الخفير قد أبلغ به .

ـ المؤسف أنك والخفير عملكما بالنقطة هو لتأمين الطريق، وخاصة فترة الليل.

ـ الطريق كُحل بالليل ... و لا نستطيع أن نفعل شيئاً يا بك .
يحادث رئيس المباحث زميله قائلاً :
ـ حرر مذكرة عن غيابهما لعرضها على المأمور فور عودتنا؛ لعمل تحقيق عسكرى لهما، و ادرس جدوى استمرار هذه النقطة من الناحية الأمنية .

يقوم أحد الخفراء بصب الشاى من براد مصنوع من المعدن فى كوبين من الزجاج، فيظهر منهما الشاى بلون أسود، ويقدمهما للضابطين، فلا يمانعان... ويشكرانه ... ويمزح ضابط المباحث مع رئيسه قائلاً :
ـ سوف تتعود على شرب الشاى الصعيدى ... و لن تستسيغ شرب الشاى الخفيف بعد ذلك.. كما حدث معى الآن.. فأصبحت أفضل أن أشرب الشاى بلون الحبر .

أثناء شربهما الشاى ... قام رئيس المباحث بعمل محضر لعثوره على بعض الطلقات الفارغة التى عثر عليها بموقع الجريمة، كما أثبت التعرف على جثة القتيل، و دون اسمه كاملاً، وأثبت مناقشته مع زوجة القتيل وابنه اللذين لم يتهما أحداً بارتكاب الحادث، و إن كانا قد اعترفا بوجود خصومة بين القتيل وإحدى العائلات بقريتهم . أثناء ذلك تصل سيارة أجرة، ومن خلفها سيارة "جيب" شرطة، أقلت السيارة الأولى طاقم النيابة المكون من وكيل النيابة وأحد معاونيه الجدد وكاتب التحقيق، كما صاحبهم ضابط برتبة الملازم بسيارة الشرطة، فاستقبلهم ضابطا المباحث و توجهوا جميعاً لمعاينة الجثة.

ما إن اقترب وكيل النيابة و الذين معه من الجثة، إلاَّ وعادت النسوة للصراخ و العويل و لطم الخدود مرة أخرى ... نظر إليهن رئيس المباحث مشدوهاً، حيث كُنَّ صامتاتٍ هادئاتٍ من لحظات.. ثم نظر بعدها متعجباً إلى زميله ضابط المباحث الذى أجابه:

ـ إنهن يفعلن ذلك لاستدرار عطف الحكومة، كما فعلن ذلك عند وصولنا، لقد صادفنى ذلك كثيراً عندما شاركت فى معاينات مماثلة .

بعد أن انتهى وكيل النيابة من إجراء المعاينة، و إثباته لمحضر العثور على الطلقات الذى حرره رئيس المباحث، قرر استكمال التحقيق بسراى النيابة، طالباً إحضار الخفير الذى أبلغ بالحادث، وزوجة القتيل وابنه لسؤالهم عن معلوماتهم، مع تكليف المباحث بالتحرى عن الحادث، وسرعة إخطار الطبيب الشرعى للحضور لتشريح الجثة .

عاد وكيل النيابة وصحبه إلى مقر عملهم، بعد أن ودع رئيس المباحث مذكراً إياه بأنهم فى انتظاره هو والمأمور، لشرب القهوة معاً كإتفاقهم أمس، بينما اصطحب ملازم الشرطة معه الأشخاص الذين طلبهم وكيل النيابة لأخذ معلوماتهم بالنيابة.

استمر ضابطا المباحث بالبلدة؛ لإتخاذ بعض الإجراءات الأمنية اللازمة، فأشرفا على نقل الجثة إلى الوحدة الصحية بالقرية، ليسهل على الطبيب الشرعى تشريح الجثة بها، وتعيين الحراسة اللازمة عليها لحين الانتهاء بدفنها ثم انتقلا إلى قرية القتيل، وهى المجاورة لهذه القرية، حيث توجد الخصومة بين عائلة القتيل، و إحدى العائلات الأخرى بها .

قابلهما العمدة بترحاب شديد بدوار العمدية، كان حديثهم عن الخصومة وتطورها والسبب فى عدم إتهام عائلة القتيل لأحد معين بارتكاب الحادث، استعلم منه رئيس المباحث عن تأثير هذا الحادث على أمن القرية، ومدى عصبية العائلتين، طمأنه العمدة، وأوضح له بأن العائلتين تساوت رؤوس القتلى بينهما الآن، وقد حضر ـ أثناء النقاش ـ المخبران اللذان سبق أن كلفهما رئيس المباحث بالذهاب لهذه القرية لملاحظة الحالة بها ... أبلغا رئيس المباحث بأن الحالة هادئة نسبياً كما أخبراه بأن العائلة المتخاصمة مع عائلة القتيل يجلس الآن أفرادها؛ لتقبل العزاء فى قتيلهم الذى قتل منذ مايزيد عن خمسة عشر عاماً، حيث رفضت تلقى العزاء فى قتيلهم وقتها كتقاليد أهل تلك المنطقة... وصممت على الانتقام من الجانى نفسه والتمثيل بجثته مثلما فعل هو فى قتيلهم ... وقد نفذوا ذلك فعلاً .

كلف رئيس المباحث العمدة بالتمهيد بين العائلتين؛ لإجراء الصلح بينهما فى الوقت المناسب .

بعدها استقل رئيس المباحث و زميله السيارة عائدين للمركز، و فى الطريق بادر رئيس المباحث بسؤال زميله قائلاً :

ـ أمر غريب! ... لقد حكم على القتيل بالأشغال خمسة عشر عاماً لجريمته، و نفذ العقوبة ... فلماذا يتم قتله إذن؟ ...

ـ هذه تقاليد المنطقة فى الثأر ...
ـ لقد تشوقتُ لدراسة تلك التقاليد ... و أتمنى لو أستطيع أن أُسهِمَ فى التقليل من آثار هذه الظاهرة ...

و يستمر الحوار بينهما عن تقاليد الثأر إلى أن يصلا مع قواتهما للمركز، وقد عرجا إلى مكتب المأمور، و أحاطاه بما تم بالنسبة للحادث، قبل أن يصعدا إلى مكتبهما .

ما إن استقر رئيس المباحث بمكتبه، إذ يتوافد عليه العديد من كبار الأعيان و بعض رجال الإدارة؛ لتهنئته باستلام عمله، فرحب بهم و قابلهم ببشاشة لإيمانه بأن اللقاء الأول يترك انطباعاً وتأثيراً كبيراً عنه، و أثناء ذلك

توجه ضابط المباحث لسراى النيابة؛ لمتابعة التحقيق بالحادث، ولاستكمال سؤاله عن معلوماته فى بعض القضايا السابقة، وفق موعد محدد سلفاً معه .

فور أن انتهى رئيس المباحث من مقابلة المهنئين، وبدأ فى توقيع بعض الأوراق، إذ يدخل عليه مخبر مكتبه قائلاً له :
ـ يوجد رجل فقير بالخارج يود مقابلة سيادتك؛ ليهنئك بسلامة الوصول .
ـ دعه يدخل .

ويدخل رجل فى حوالى الخمسين من عمره، يرتدى جلباباً، ويضع عمامة على رأسه، وتدل ملابسه على أنه رجل رقيق الحال، يعمل بإصلاح الطرق، ويبتسم لرئيس المباحث، وهو يقول

:ـ ألف مبروك يا بك... حمداً لله على السلامة... نورت المركز .
ـ شكراً ... اتفضل أقعد .
ـ العفو يا بك ... بصراحة يا بك أنا حضرت أُهنئك، وأعرض عليك مشكلتى... لقد انتظرت حتى خرج كل المهنئين؛ لأحكيها لك ...فهى مصيبة كبيرة يا بك!
ـ مصيبة؟ خير إن شاء الله.
ـ ابنى يا بك ... مصاحب قريب لنا، سيء السمعة ... و هذا القريب عنده سلاح، و ينوى ضرب نار على عساكر دورية سيارة الشرطة، وقت مرورها بالبلدة ... ثم بعدها يشهد أن الذى أطلق النار بعض خصومنا لأذيتهم.. وقد عنفت ابنى.. وعقب ذلك تركنى وأقام طرف قريبه هذا ... وأنا يابك أخشى أن يفعلا ما أضمراه من إطلاق النار؛ خشية حدوث مكروه للعساكر.

يهتم رئيس المباحث بما أخبره هذا الرجل، و يطلب منه الجلوس، حيث بدأ فى أخذ معلومات عنه، و بيانات عن قريبه هذا، و نوع السلاح الذى معه، واسمه كاملاً، وكذا اسم ابن المُبَلِّغ . ثم يسأله عن وصف بيت قريبه، والذى يتضح أن البيت عبارة عن عشة صغيرة لا تبعد عن الطريق الرئيسى بأكثر من خمسين متراً ناحية الغرب، وتحيط بها الزراعات من كل ناحية، وأضاف المُبَلِّغ بأنها تبعد عن وابور الطحين المقام بنفس الطريق بحوالى مائتى متر تقريباً.

بعدها أخذ الرجل يستعطف رئيس المباحث راجياً بألاَّ يضر ابنه؛ حتى لا يندم على الإبلاغ، طالباً منه الاكتفاء بتأديبه فقط، والتمس منه ألاَّ يعلم أحدٌ ببلاغه هذا، فَيَعِدُه رئيس المباحث بذلك، ثم يسأله سؤالاً أخيراً :

ـ ماهو الوقت المناسب لوجود قريبك بالعشة؟
ـ الساعة أربعة .... العصر .

و يسمح له رئيس المباحث بالانصراف، مؤكداً بأنه سيهتم بالموضوع، طالباً منه التردد على مكتبه، إذا ما احتاج لأى شىء مستقبلاً .

بعدها استدعى رئيس المباحث مندوب التجنيد على عجل وأخبره بأنه سيتوجه الآن مع المأمور؛ لزيارة وكلاء النيابة، وعند عودته سيطَّلِع على بيانات المتخلفين عن التجنيد، كل عام على حدة؛ كى يعرف الموقف بصفة إجمالية ... و طلب إعداد هذه الإحصائية فوراً .

ما إن انتهى من حديثه إلاَّ و يرن جرس التليفون الموجود على مكتبه ويتبين أن المتحدث هو المأمور، يستعجله فى النزول؛ للتوجه معه للنيابة .

و فى الطريق أخبر رئيسُ المباحث المأمورَ، بما أبلغه الرجل رقيق الحال من نِيّة أحد أقاربه بإطلاق النار على سيارة دورية الشرطة فى المنطقة، ثم يشهد قريبه و ابن المُبَلِّغ زوراً بأن الفاعل بعض خصومهم .

فيطلب منه المأمور ـ احتياطياً ـ طلب السيارة للحضور لديوان المركز الآن . وينفذ رئيس المباحث ذلك عن طريق اللاسلكى الموجود بالسيارة .

بسراى النيابة تم استقبالهما بترحاب شديد، وتبادل الجميع الكلمات الطيبة التى تقال فى مثل تلك المناسبات، لكن الزيارة لم تستغرق وقتاً طويلاً، فالجميع لديهم من الأعمال المهمة التى تستلزم وجودهم بمكاتبهم وتفرغهم لها فما إن فرغ الجميع من شرب الشاى والقهوة، إلاَّ و استاذن المأمور ورئيس المباحث للانصراف، فودعا بترحاب مماثل لاستقبالهما .

فور عودة رئيس المباحث لمكتبه، قام بتحرير إذن للنيابة لضبط وتفتيش خُص ومسكن قريب المُبَلِّغ؛ وذلك لضبط مايحرزه من أسلحة، وذخائر بدون ترخيص، ثم أرسله لوكيل النيابة داخل ظرف مغلق مع أحد الشرطة السريين، و قد داعبه و كيل النيابة ـ تليفونياً ـ عن تلك الهمة والنشاط، حيث لم يستغرق عمل رئيس المباحث بالمركز إلاَّ يومين فقط .

بعدها استدعى مندوب التجنيد؛ محاولاً التعرف على المشكلات التى تعترض عمله، و ترتب عليها أن أصبح ترتيب المركز الأخير بالنسبة للمتخلفين عن التجنيد بالمحافظة؛ و ذلك وفقاً لإحصائيات المضبوطين منهم . و اهتمامه بعملية ضبط المتخلفين عن التجنيد هو استعداد الدولة للحرب وقتها بعد نكسة ١٩٦٧، واهتمام كافة القيادات بذلك .

أثناء ذلك يدخل عليه بالمكتب زميله ضابط المباحث، و قد بدا عليه الإجهاد الشديد، و من خلفه دخل رجل، عرَّفَ رئيس المباحث به بأنه المُنَجِّد الذى سيقوم بعمل الكسوة الجديدة "للكنبة"، و يأخذ الرجل المقاسات وينصرف، كذلك انصرف مندوب التجنيد بعد أن انتهى رئيس المباحث من الإطلاع على دفاتره والأوراق المتعلقة بالإحصائيات التى طلبها بعدها ألقى ضابط المباحث بجسده على " الكنبة "، قائلاً لرئيسه :

ـ لا تؤاخذنى يا أفندم ... فأنا مجهد اليوم تمامـا ... فبعد أن أدليت بمعلوماتى فى بعض القضايـا بالنيابة حضر هناك اثناء ذلك الطبيب الشرعى، تقـابلت مـعـه ... و طلب منى أن أرافقـه لمـكان جـثـة القتيـل فتوجهت معه، حيث عـدتُ مرة أخرى لموقع الـحادث الذى كـنا به فى الصباح، و انتظرت إلى أن انتهـى من عمليـة التشريـح، و سيادتك تعرف وعورة الطريق، نظراً لأنـه غير " مسفلت "، و به مطبات كثيرة . سوف أستغرق فى النوم بعد الغـذاء ... فأرجو الإذن لى بالحضور متأخراً بعض الوقت فى الفترة المسائية .

يأذن له رئيس المباحث بذلك، و يتوجهان سوياً مع بقية الضباط الآخرين لتناول الغذاء بالاستراحة .

(٦) دهــاء

انتهى الضباط من تناول غذائهم، و انصرفوا بعدها إلى بيوتهم للراحة، ومن بينهم ضابط المباحث، بينما توجه رئيس المباحث بمفرده إلى ديوان المركز حيث اصطحب معه "باللورى" بعض المخبرين المنوبين، وقوة من العساكر المجندين؛ لتفتيش العشة، التى استصدر إذناً من النيابة لتفتيشها، وضبط الأسلحة الغير مرخصة بها . لم يشأ رئيس المباحث أن يصطحب معه زميله بتلك المأمورية؛ حتى يدعه يستريح، حيث الإجهاد كان بادياً عليه .

يحمد رئيس المباحث الله ... و يتساءل :
- ماذا لو لم يقدم الرجل معلوماته ووقع الحادث و أصيب أو قُتِل أحد الجنود؟

يحمد الله أنه تم اتخاذ إجراء فورى باستدعاء السيارة "الجيب" اللاسلكى التى تجوب المنطقة؛ لتقف بديوان المركز .

يحدث رئيس المباحث نفسه متعجباً بتصرف هذا الرجل الذى أبلغ عن ابنه وقريبه ... إنه يستحق الشكر فعلاً ... و يسرح بذاكرته إلى الوراء - أثناء ركوبه السيارة - إلى أيام الدراسة عندما كان طالباً بالثانوى وكان تعاطفه مع تلك الطبقة الكادحة شديداً ...

و التى ينتمى إليها هذا الرجل ... يتذكر ماكتبه بمجلة المدرسة عنهم .. عن رجال الصعيد السُمر .. تحت عنوان "المكافحون" ... يتذكر و يسترجع ما كتبه :

" هل رأيتهم؟ من ؟. الكادحون ... أعنى الكادحين فى سبيل لقمة العيش ... المناضلين من أجل العدالة و المساواة ... المكافحين ... المجاهدين ...

انظر يا صاحبى بعيدا هل ترى هذا المنزل الذى اوشك أن يتم بناؤه؟ ...

هل ترى العمال وهم يحملون الحجارة ويسيرون على ألواح ضيقة من الخشب وعلى ارتفاع شاهق، ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، لكنه يا صاحبى كفاح من أجل لقمة العيش .

تعال لنقترب منهم.. هل تسمع شدوهم وهم يصيحون "هيلا .. هوب هيلا"؛ فتظنهم بغنائهم وشدوهم هذا أهنأ بالاً، وأسعد حالاً، فتكاد تحسدهم على سعادتهم التى توهمتها .. لقد أخطأت ياصاحبى إنهم ينشدون لينسوا مرارة حياتهم .. تعال لنسمع غناء قلوبهم الحزين إننى أسمعه .. فقلب كل منهم يردد :

"أبنى وأعلِّى فى بيت الغير
لأجل أمواله بالألوف تصير
أما أنا وعيالى الكتير
فالفقر ساكن معانا فى كوخنا الحقير".

وينتبه رئيس المباحث ... ويتوقف عن الاسترسال .. فى تلك الذكريات، فقد اقتربت السيارة من البلدة المقصودة، يسأل المخبر الذى أجلسه بجانبه بمقدمة السيارة، والذى أخبره عن جهة المأمورية، بعد أن ركب معه قائلاً له :

ـ هل هذا وابور الطحين المقصود ؟

ـ نعم يا بك .

فيوجه بعدها حديثه للسائق، وهو يشير ناحية العشة :

ـ استعد ... سنقف أمام هذه العشة مباشرة.

أمام العشة تقف السيارة .. وينزل منها رئيس المباحث، ويتبعه الشرطى السرى .. ومن باب السيارة الخلفى قفز بخفة الجنود المدربون بأسلحتهم، ويهرولون جميعاً ناحية العشة، ووفقاً للتعليمات التى تدرب الجنود، فقد قام كل منهم بتنفيذ الدور المكلف به، بعضهم التف حول العشة، والبعض الآخر صاحب رئيس المباحث، وآخرون للتحفظ على من بالبيت؛ خشية هروب أى منهم، والبعض لتأمين السيارة. كان باب العشة مفتوحاً.. دخلها رئيس المباحث، وجال ببصره فلم يجد أحداً بها باستثناء إمرأة عجوز كانت تقف قرب بابها .. تبين أنها صاحبة العشة .. وأنها أرملة تقيم مع ابنها حسنين المأذون بتفتيشه .. سألها عنه، فأجابت بأنها لا تعرف مكانه الآن ..

يتم تفتيش العشة .. فيعثر على جوال من الخيش ملفوف بداخله بندقية جديدة، روسية الصنع، سريعة الطلقات ومعها أيضا عدد كبير من طلقات الرصاص،

وكان الجوال مخبأ بين عيدان الذرة الجافة الموجودة بسقف العشة، تعجب رئيس المباحث، فهو يعلم أن ثمن البندقية غال، بينما مظاهر الفقر بادية على كل شئ بالعشة !..

فتساءل مع نفسه :

- ألم يكن أجدى لسكان هذه العشة، أن يشتروا بقرة أو جاموسة، يستفيدون منها بدلاً من هذه البندقية ؟

ويوجه حديثه للمخبرين مستفسراً بقوله :

- وأين نجد حسنين خلف الآن ؟ .. وكذلك قريبه السيد محمود المليجى؟

يجيبه مخبر له علم جيد بأهل المنطقة، ولم يكن لديه معرفة عن البلاغ من قبل، بقوله :

- حسنين خلف .. هذا بيته .. ومادامت البندقية هنا بالعشة .. فهو بالقرب من زراعته، ولعله اختفى فى زراعات الذرة فى الغيطان المجاورة، أما السيد المليجى، فهو من عائلة أخرى ويسكن فى عزبة بعيدة عن هنا مع والده .
- من عائلة أخرى ؟ .. أليس قريباً لحسنين ؟
- نعم يا بك.. ليس قريباً لحسنين.. والعائلتان فى خصومة ثأرية !.
- ألا يتردد السيد المليجى على هذه العشة ..؟

يبتسم المخبر، ويجيب :

- وهل يأتى لقضائه ؟ .. غير معقول يا بك ! .. حسنين يقتله فى الحال، فعائلة السيد قتلت والده .

وتتضح الصورة لرئيس المباحث، ويغضب من تصرف الرجل معه، والذى كان يعتقد بأنه رجل يستحق الشكر والثناء على بلاغه، ولكن يتضح أنه يستحق اللوم والعقاب.

وفى طريق عودته للمركز أخذ يلوم نفسه، يعترف بأنه قد تسرع، ويتعجب من فكر هذا الرجل الفقير، وكيف يتأتى إلى ذهنه ليؤلف هذه الرواية ويحبكها والأدهى أن يقدمها فى الوقت المناسب، فيختار ضابطاً جديداً فى بداية تسلمه العمل، وانشغاله باستقبال المهنئين، وتيقنه أن الضابط سوف يسرع بضبط السلاح؛ حرصاً على سلامة الجنود .. وقد تحقق له كل ما أراد .. وتم ضبط السلاح الذى طرف خصمه .

فور وصوله إلى ديوان المركز أحاط المأمور بنتيجة المأمورية، وقد أعد إخطاراً إلى مديرية الأمن، كما حرر محضراً بضبط الواقعة، ثم قام بالإشراف على تحريز البندقية الروسى والطلقات؛ تمهيداً لإرسالها للعرض على النيابة العسكرية فى صباح اليوم التالى .

ما إن انتهى من تلك الإجراءات، إلا ويدخل عليه بالمكتب زميله ضابط المباحث، محيياً إياه، وهو يقول :

ـ مساء الخير يا أفندم .. ما هذا المجهود العظيم ؟!

ويقف ممسكاً البندقية ويقرأ ما كتب عليها ببطاقة الحرز، بينما يجيبه رئيس المباحث قائلاً :

ـ مساء الخير ... لم أكن أظن أنك ستحضر للمكتب هذا المساء مبكراً. لقد كان الإعياء بادياً عليك .

ـ الحمد لله .. لقد نمت واستغرقت فى النوم .. وشعرت بالراحة بعدها، فحضرت فوراً؛ لعلمى بوجودك بالمكتب .. إن هذه البندقية غالية الثمن .

ـ تصور لم أجد ببيت صاحب هذه البندقية .. بقرة .. أو جاموسة، لم أجد حتى ولو عنزة واحدة .. إن هذا البيت عبارة عن عشة بسيطة، كل مافيها يدل على الفقر الشديد .. ومع هذا يحرزون مثل هذه البندقية غالية الثمن .. ألم يكن أجدى لهم بيعها، وشراء جاموسة أو بقرة يستفيدون منها ؟ .. ما الأفيد لهم .. البندقية أم الجاموسة ؟ .. إنى أتعجب !.

ـ يا أفندم أهل البلد هنا، لا يحسبونها هكذا .. إنهم يفاضلون بين الحفاظ على حياتهم، مادام توجد خصومة ثأرية .. ويمثل حوزتهم للسلاح وبين اقتناء جاموسة أو بقرة .

يصمت رئيس المباحث لحظة ثم يقول :

ـ معك حق !

ثم يضحك بصوت عال، ويقول لزميله :

ـ يبدو أننى الذى سأتعلم منك .. وليس العكس كما هو مفروض.

ـ العفو يا أفندم .. العفو.

ويقص رئيس المباحث لزميله، ما حدث بالنسبة لجو الإثارة فى بلاغ الرجل، ثم يقول له :

- خدعنى مظهره .. كان يبدو عليه أنه رقيق الحال، صادق فى كلامه، وأنا بطبعى أتعاطف مع تلك الطبقة، ولم يدر بخلدى أنه يفكر بمثل هذا التفكير ليحفزنى بضبط السلاح بهذه السرعة. لم أشأ أن أفتشه اليوم؛ بحثاً عن أسلحة لديه.. وسأعمل على ضبطه عندما يطمئن، وأعرف أين يخبئ الأسلحة الغير مرخصة لديه..

إن مثل هؤلاء الناس - للأسف - يجعلون رجال الشرطة يتشككون فى كل البلاغات التى تصل إليهم!.

- سيقابلنا مثل ذلك الكثير هنا، فهم مع خصومهم يتفننون فى كيفية الإيقاع بهم، وهم هنا - على قدر بساطتهم - شديدو الذكاء فى هذه النواحى.

- هه ... فلندفع ذلك الأمر الآن، وعلينا متابعة مجهود مندوبى تنفيذ الأحكام اليوم .. إننى أهتم بها كإجراء أمنى مهم.

- إجراء أمنى ؟

- بالتأكيد، فالحكم الصادر بتنفيذ عقوبة .. سواء أكانت مخالفة أم جنحة، وبالطبع لو كانت جناية، يجب تنفيذه فورا، فعدم تنفيذه أو حتى التراخى فيه يؤثر على هيبة الحكومة والدولة ككل، ويؤثر علينا بالتالى ويشجع الغير على ارتكاب مثل تلك المخالفات والجرائم .

- معك حق يا أفندم.

ويستدعى رئيس المباحث "بلوكامين التنفيذ"، الذى يعرض إحصائية بمجهود مندوبى تنفيذ الأحكام فى هذا اليوم، كل مندوب على حدة، من واقع دفاتر التحصيل بالنسبة للغرامات، بالمقارنة لمجهود الأمس كما طلب منه ذلك.يتصفحها رئيس المباحث سريعاً، وهو يقول له بصوت مرتفع :

ـ مجهود عظيم، جميعهم قاموا بتنفيذ العديد من أحكام المخالفات والجنح.

ثم يطلب منه أن يحضر جميع مندوبى التنفيذ، ومعهم دفاتر الإيصالات الدالة على السداد؛ تنفيذاً لأحكام الغرامات من المخالفات والجنح .. يحضر الجميع، ويتفحص الإيصالات التى مع كل منهم؛ فيجد عجباً، فالمخالفات جميعها لشخص واحد، هو سائق ومالك لسيارة أجرة، وصادرة ضد أحكام مخالفات تزيد عن المائة، ويكتشف رئيس المباحث أن مندوبى التنفيذ ـ خشية المتابعة ـ قد تضامنوا، ووزعوا أحكام المخالفات لهذا السائق عليهم جميعاً، خاصة أن السائق يقيم بمنزل مجاور لديوان المركز ! ، وكان يمكن لفرد واحد وهو مندوب تنفيذ المنطقة أن ينفذها بمفرده، وهكذا فشلت محاولتهم فى إظهار جهود لهم على غير الحقيقة، وبدلاً من أن يستمعوا لكلمات الشكر والثناء من رئيس المباحث .. قام بتوبيخهم وتكديرهم !.

عندئذ شكوا له من صعوبات تقابلهم، فنبه على "بلوكامين التنفيذ" بإعداد بيانات عن كل أحكام المخالفات والجنح القديمة، التى بكل قرية على حدة، مع إرسال إشارة لجميع مشايخ الخفراء بالمراكز للحضور لاجتماع برئاسته فى بداية الأسبوع التالى؛

حيث سيتم تسلم تلك الأحكام لهم، ويتم متابعتهم فى تنفيذها، أو تقديم تحريات جادة بشأن الهاربين منهم.

بعد انصراف مندوبى التنفيذ، ابتسم ضابط المباحث قائلاً لرئيسه، معجباً به :
ـ أستاذ يا أفندم.

(٧) تمرس العمل

توالت الأيام متشابهة، فجريمة الأخذ بالثأر هى الجريمة الغالبة، كما هى حالها فى معظم بلاد الصعيد، مع ارتفاع معدلاتها فى هذا الوقت من كل عام نظراً لانتشار زراعات الذرة الرفيعة و علو سيقانها مما يسهل عملية الاختباء، و يتمكن من يريد رصد خصمه أن ينال منه، فالذى يختبىء بين أعواد الذرة يرى خصمه بوضوح بينما الخصم لا يراه .

مع تعدد وقوع حوادث الثأر، و تكرار الإجراءات التى أصبحت شيئاً مألوفاً وسهلاً لرئيس المباحث، فقد ازداد ثقةً بعمله. كما شعر براحة نفسية فى موقعه الجديد، خاصةً بعد أن انتهى العمال من طلاء حجرة مكتبه، وإصلاح الأثاث به، و مع اهتمام الساعى بالنظافة، أصبحت الحجرة جميلة . كل هذا حفز رئيس المباحث وزميله على البقاء بحجرة المكتب فترات طويلة، خاصة فترة الليل، حيث كانا يقضيان عدة ساعات فى الإطلاع بشغف على ملفات الحوادث السابقة والخصومات المهمة، وملفات الأشقياء الخطرين، فازداد علمهما ودرايتهما بأحوال المركز، و أصبحا كأنهما قد عاشا فى هذا المكان منذ زمن بعيد.

كما شعر رئيس المباحث براحة أكثر، عندما انتقل من الاستراحة؛ ليقيم بشقته بعد تسلمه لأثاث بيته . كان سكنه هذا مجاوراً لمبنى مركز الشرطة، بالطابق الأخير بإحدى العمارات المملوكة لمجلس المدينة والمقامة حديثاً، وقد مكنه ارتفاع وعلو سكنه من رؤية شوارع وطرقات البلدة على الطبيعة، ومعرفة جغرافيتها بسهولة.

كان يظهر له بوضوح على مدى البصر منظر الصحراء وبها سلسلة قمم الجبل الشرقى، و التى تعلو تارة و تهبط تارة أخرى، وتقترب من بلاد المركز مرة ثم تبتعد مرة أخرى ...

كان هذا المنظر يسعده ... كم كان يعشق الصحراء ... بل لا يزال يعشقها حتى الآن وعشقه هذا مرجعه لأن له فيها ذكريات طيبة، حيث قضى بها عدة شهور وهو طالب بأجازة صيف مصاحباً لوالده، الذى كان قد أُنتُدِبَ للعمل بالواحات الخارجة بالصحراء الغربية ...

ذكرته رؤية الصحراء والتلال بقصيدة كتبها منذ زمن بعيد، حينما كانت له محاولات لكتابة الشعر، لكنها لم تستمر، تذكر مطلعها ... فردده قائلاً :

بين التلال و الربا ...
اثنان تحابا و تصاحبا ...
منذ الصبا ...
وعلى الوفاء تعاهدا ...
لآخر مدى حتى الردى ...
ألاَّ يتباعدا ...

....
كثيراً ما كان يحملق فى الصحراء والجبال المترامية من مسكنه هذا بعد عناء العمل، فتهدأ نفسه، و يشعر بالراحة، ويساعده ذلك على التفكير فى بعض مهام عمله .

تبين له أن السمة الغالبة للحوادث الجنائية بالمركز، هى القتل أخذاً بالثأر، لكن هذا لايعنى عدم وقوع حوادث أخرى خطيرة، ومن النوع الذى تهتم به الوزارة .كان وقوع بعض هذه الحوادث فى الأيام الأولى من تسلمه لعمله هو بمثابة امتحان لقدراته، ومعرفة مهاراته فى مواجهة تلك الأحداث . وكان أهمها حادث سرقة بقرة من أحد المنازل والآخر جناية خطف لأحد الرجال .
كان لسرقة البقرة اهتمام خاص لدى رئيس المباحث، فالمجنى عليه لم يبلغ المركز بما حدث؛ لرغبته فى أن يسترد بقرته "بالحلوان"، لكن أمر السرقة شاع و انتشر، و وصل إلى علم رئيس المباحث، عن طريق أعوانه من المخبرين و لأنه كان يؤمن بأن رد المسروقات بأسلوب "الحلوان" معناه مهادنة اللصوص واستفحال الجريمة بالتالى، فلم يتردد فى إتخاذ الإجراءات القانونية فوراً، بتحرير محضر عن الواقعة، و قد عاونه فى عملية البحث و التحرى رئيس مباحث المحافظة، والذى حضر شخصياً و معه أحد مفتشى مباحث مديرية الأمن وبعض أعوانهما من المخبرين، و إنضم إليهم مجموعة من مخبرى المركز حيث بذل الجميع جهداً فائقاً، و كافأهم الله على جهدهم، فقد ضُبِطت البقرة و كذا مرتكبو الحادث .

كان هذا الحادث فرصة لتوطيد العلاقة بين رئيس مباحث المركز ورئيس مباحث المحافظة حيث تلازم الجميع فترات طويلة عند قيامهم بإجراء التحريات فضلاً عما استفاده رئيس مباحث المركز من التَعَلُّم من رئيسه فى طريقة تعامله مع المرشدين الجدد، حيث استطاع أن يحصل منهم على معلومات كثيرة ومفيدة عن الحادث؛ مما أدى إلى ضبط المتهمين والعثور على البقرة المسروقة.

أما عن الحادث الآخر، وهو خطف أحد الرجال بُغية الحصول على مبلغ من المال من أسرته لإعادته، فقد تبين أن هذا الرجل من الموسرين، لكن عائلته ليس لها عصبية كبيرة بالبلدة، و حاولت أسرته التستر على تلك الجريمة فلم يبلغ أحد باختطافه خشية إيذائه من مختطفيه، و قام رئيس النقطة التى وقع بها الحادث بتنفيذ رغبتهم هذه، حيث أبلغ رئيس المباحث وزميله بالحادث شفاهة، واتفق الجميع على مراعاة السرية التامة عند التحرى عن الحادث، حرصاً على سلامة المجنى عليه .

بعد أن عاد الشخص المختطف، والذى دفع أهله مبلغاً من المال لخاطفيه قام رئيس المباحث بمناقشة هذا الشخص طويلاً، لكنه أنكر واقعة اختطافه؛ معللاً عدم وجوده بأنه كان مسافراً إلى القاهرة، ومكرراً إجابته عدة مرات، وقد استنكر مجرد التساؤل عن عملية اختطافه قائلاً :

ـ واه ... كيف يا بك يخطفونى؟ ... هو أنا صغير؟

و لم تُجدِ محاولات رئيس المباحث و معاونه فى معرفة أسماء مرتكبى الحادث من المجنى عليه أو أى أحد من أفراد أسرته .

لذا فقد قررت النيابة استبعاد وصف جناية الخطف للواقعة، وقيدت المحضر برقم إدارى! .

(٨) الخطة

كان لوقوع مثل هذه الحوادث الجنائية أثر كبير، يشغل فكر رئيس المباحث، فقد اقتنع بأن هذه الحوادث يجب أن يكون لها الأولوية فى قمع مرتكبيها؛ نظراً لخطورتها من ناحية، و من ناحية أخرى فإنها سوف تشغله عما يهدف إليه بتقليل عدد قضايا القتل بسبب الثأر، آملاً فى أن يعينه الله؛ ليسهم بقدر للقضاء على هذه الظاهرة .

لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

لقد كان يؤمن بالأسلوب العلمى فى الإدارة . فَلِمَ لا يطبقه؟

بدأ على الفور فى وضع خطة واقعية، مبنية على المعلومات التى تَحَصَّلَ عليها، و بالإمكانيات المتاحة، معتمداً فى تنفيذها على الاستعانة بصغار الضباط بالمركز، و الذى تربطه بهم صلات طيبة للغاية . احتوت خطته على مراحل فى تنفيذها، ومرتبة وفقاً لأولويات الخطورة للحوادث، و أن تتم فى فترة زمنية لا تزيد عن ثلاث سنوات و هى مدة بقائه للعمل بالصعيد.

كانت أُولى اهتماماته هى سرعة القضاء على التشكيلات العصابية التى ترتكب حوادث الخطف و السرقات بإكراه، والسرقات عموماً؛ كى يشعر الأهالى بالأمان فى بيوتهم وحقولهم، و يتأكدون من أن يد العدالة تصل لكل مخالف للقانون،

وذلك بالعمل على ضبط جميع المحكوم عليهم الهاربين بالمركز وتنفيذهم لتلك الأحكام التى صدرت ضدهم. وأن يتساوى الجميع أيضاً بالنسبة لعملية التجنيد، فلا يترك متخلف واحد عن التجنيد دون بحث عنه لضبطه، فيشعر الأهالى بأن القانون لا يفرق بين مواطن وآخر. فإذا ما تم ذلك، فسوف تظهر الشرطة بصورة طيبة، و لها هيبتها، فيلجأ لها المواطنون لحل خلافاتهم ومشكلاتهم، و هذا هو المدخل اللازم لتقليل وقوع حوادث القتل، والتى يترتب عليها حوادث الأخذ بالثأر .

أثناء وضع التفصيلات الصغيرة فى خطته، حيث كان الزمن قد تجاوز منتصف شهر أغسطس بعدة أيام، إلا و يقع حادث جلل، اهتزت له مشاعر المسلمين فى كل أنحاء المعمورة! فقد أشعل أحد الإسرائيليين النار بالمسجد الأقصى، فاستعد رئيس المباحث لما قد يحدث من ردود أفعال للمصلين عند تجمعهم عقب صلاة الجمعة بدائرة المركز، بإعداد خدمات لقوة المخبرين لملاحظة الحالة بالمساجد الكبيرة عند الصلاة والتى قرب موعدها، و قد هداه تفكيره أثناء ذلك إلى تساؤل هو :

لماذا لا يستعين بخطباء المساجد؛ لنبذ عملية الثأر؟ إن الوازع الدينى سيكون له تأثير كبير ـ بغير شك ـ فى الحد من آثار هذه الظاهرة .

على الفور بدأ يرتب فى ذهنه كيفية تنفيذ ذلك، تحاور مع نفسه متسائلاً:

لماذا لا يتحدث عن فكرته للواعظ الدينى بالمركز؟ ويحثه بعد ذلك على تكليفه لخطباء المساجد الآخرين للقيام بتوعية دينية للأهالى؛ لمنع قتل خصومهم أخذاً بالثأر، و ليتركوا ذلك لجهة الاختصاص وهى الحكومة .

اقتنع بما هداه تفكيره مقرراً لنفسه بأن هذا هو التفكير السليم للبدء فى معالجة تلك الظاهرة، أحاط زميله ضابط المباحث بما يفكر فيه، فأقره على ذلك .

بدأ فى التنفيذ بأن أرسل فى طلب واعظ المركز، و قد استقبله رئيس المباحث عند قدومه بترحاب شديد، تبين أن الواعظ فى العقد الرابع من عمره كان معمماً ومرتدياً الملابس الأزهرية، لكنه حليق الذقن، ويتحدث باللهجة الصعيدية، كان حديثه بصوت منخفض وبنبرة هادئة. دار الحديث بينهما فى البداية عن واقعة حريق المسجد الأقصى، والاحتمالات المتوقعة كردود أفعال غاضبة، ثم انتقل إلى الحاجة إلى الوعى الدينى فى مكافحة جرائم الثأر، بينما جلس زميله الضابط مستمعاً إلى الحوار الدائر بين رئيسه و رجل الدين .

بدأ رئيس المباحث الحديث عن الثأر بقوله :

ـ يا سيدنا ... نحن فى حاجة إلى معونتك .

ـ أنا؟ ... أنا رهن الإشارة .

ـ أنت تعلم الكثير عن حوادث الثأر... فأنت من أهل هذه البلاد.

ـ نعم أعلم ... إنها خراب بيوت و العياذ بالله .

ـ إذن اتفقنا .

ـ و ما المطلوب منى أن أفعله؟

ـ أن تُظْهِرَ مساوىء و أضرار تلك العادة المتفشية فى بلادنا هذه، أثنـاء إلقاء خُطَبِكَ بالجامع .
ـ الكل يعلم مساوئها..فمن منا لم تكتو أسرتـه بنارهـا، هى خراب بيوت كما قلت لسيادتك، وليس لدى مانع.. بل أرحب به.
ـ لقد لاحظت أن بعض المتهمين فى حوادث الثأر، يقومون بأداء الصلاة فى مواعيدها، و هم بالحبس، فهم أكيد لديهم وازع دينـى عميق، لو كان هؤلاء الناس قد تعلموا دينهم على حقيقتـه، و بأن القتل أخذاً بالثأر حرام لما فعلوا ذلك .
ـ قال تعالى : "كتب عليكم القصاص فى القتلى" [١] صدق الله العظيم.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨

إن من يأخذ بثأره كقصاص ليس حراماً، حيث أن جريمة القتل العمد عقوبتها فى الشريعة القصاص أو الدِّية .
ـ كيف يا سيدنا؟ ... إن الحكومة هى التى تتولى تنفيذ الأحكام .. هى أولو الأمر ... و ليس كل من له حق يقتضيه بنفسه .
ـ إنهم معذورون ... فمعظم القضايا الخاصة بالثأر تحفظ أو يحكم على المتهمين فيها بالبراءة، و لا يحكم فيها بالإعدام، كما يقضى الشرع، ولهذا يلجأ من له ثأر فى تنفيذ القصاص بمعرفته، و صدق الله العظيم إذ يقول :
" ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون" [١] .
ـ يا سيدنا...أنا درست الشريعة بجانب دراستى للقانون... وأعلم الكثير عن القصاص فى الشريعة ... كما أعلم أن هناك العديد مـن قضايا القتل تحفظ أو يحكم لمرتكبيها بالـبراءة ...

وليس هذا عيب القضاء ... بل العيب من الأهالى أنفسهم .
ـ كيف يا بك؟
ـ ما يتبعه أهل البلاد هنا، فإذا أرادوا أن يأخذوا بثأرهم لقتل أحد أقربائهم، فإنهم لا يقتلون القاتل غالباً، بل يبحثون عن أحسن أفراد عائلة الخصم، ويقتلونه، وكذا عند الاتهام، فهم لايتهمون القاتل بل يتهمون أحسن من فى العائلة ... و يقولون إن "القتل للزين، والإتهام للزين".
ـ فى ذلك معك حق .
ـ كذلك إحجام الناس عن الإدلاء بالشهادة فى الجرائم التى تقع أمام أعينهم؛ مما يؤدى إلى إضعاف الأدلة ضد المتهمين، وهذا لايساعد على صدور أحكام على مرتكبى تلك الحوادث، فيحكم لهم بالبراءة .. المشكلة يا سيدنا أن من يطلق الرصاص

(١) سورة البقرة الآية ١٧٩

على خصمه أخذاً بالثأر فيرديه قتيلاً، يفعل ذلك وهو مقتنع بسلامة موقفه تماماً، ونفسه راضية، وأنه يفخر بذلك ... فما رأيك يا مولانا؟
ـ قال تعالى:" وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص" [١] صدق الله العظيم.
ـ صدق الله العظيم . أنا أعلم أن الدين الإسلامى ينص على عقاب القاتل ... بل كل الأديان الأخرى تحرم القتل وتنص على عقاب القاتل أيضاً .. ولكن .. يتم كل ذلك وفقاً لأصول وقواعد يجب مراعاتها و الالتزام بها وإلاَّ أصبح المجتمع فوضى، وكل شخص عليه أن يأخذ حقه بيده ...

فتسود شريعة الغاب إذن .

ويستمر النقاش بينهما، و فى النهاية يَعِدُهُ الواعظ بأنه سوف يحث الناس على أن تتصافى نفوسهم، وألا تصل الأمور إلى حد القتل، وإنهاء أى نزاع بين الأسر فور حدوثه حتى لا يستفحل .

ثم يخرج الواعظ الدينى من المكتب بعد أن ودعه الضابطان .

شعر رئيس المباحث بخيبة أمل، فقد كان متفائلاً بأن الواعظ سوف يؤدى دوره فى التوعية الدينية بحماس شديد، و أنه سوف يدين مرتكبى حوادث الثأر، و من يقف خلفهم، و يحس ضابط المباحث بشعور رئيسه، فيوجه حديثه له قائلاً :

- يا أفندم ... الواعظ من هذه البيئة، و عاش طفولته بها، و كل من عاش حوله يؤمن بمشروعية الأخذ بالثأر . فهى مسألة تحتاج لزمن طويل ؛ لتغيير هذا المفهوم لديهم ، وخير لنا

(١) سورة المائدة الآية ٤٥

ياأفندم أن نركز على الوقاية، أى نعمل على ألا تقع أيـة جريمة قتل أصلاً، و ذلـك بحل الخلافات أولاً بأول، وبالتالى لن نكون محتاجين لمعالجة جريمة الأخذ بالثـأر .

ـ كلام مضبوط .. يجـب أن يسـير عـلاج ظاهـرة القتـل بالثـأر بجوار الوقاية منها .. فعلينا أيضاً أن نوضح للشخص الذى يطلق الرصاص على أحد خصومه فيرديه قتيلاً أنه لا يسترد حقـاً.. بل إنه يرتكب إثماً.. وسيعاقبه الله عليه.. أليست الشريعة الإسلامـية تقضـى بأن النفس بالنفس .. أى نفس القاتـل ذاتـه وليسـت نفس قريبه أو شقيقه .. لكن للأسف فإن ما يحـدث هو أنـهم يقتلون أى فرد من عـائلة الخصم .. لن ينصلح الحال إلاَّ بالتوعية الدينية ..كل الأجهزة يجب أن تتضافر جهودها؛ للقضاء على تلك الظاهرة .. فلن تستطيع الشرطة وحدها القضاء على ظاهرة الأخذ بالثأر .

ثم يتحدثان فى تفصيلات تنفيذ الخطة، و دور كل منهما فى التنفيذ، وقد اقتنعا بأن هذه الخطة لو نُفِّذت فسوف تُحدث أثراً بعيداً بإذن الله بالنسبة لحوادث الثأر .

(٩) مستصغر الشرر

في مساء اليوم ذاته، بعد أن انتهى رئيس المباحث و زميله من متابعة المجهود اليومى بالنسبة لتنفيذ الأحكام و المتخلفين عن التجنيد، ومناقشتهما لبعض المخبرين بالنسبة لما قدموه من تحريات عن الأعمال المكلفين بها، دعا رئيس المباحث صغار الضباط الخالين من الخدمة للحضور إلى مكتبه، لم يشأ أن يجعله اجتماعاً رسمياً، بل مجرد زيارة ودية . فرغم أن رئيس المباحث له صلة طيبة بهم، إلاَّ أنه أراد لهذه الصلة أن تزداد و تقوى، إنه يود أن يحببهم فى العمل معه، و يؤدون تكليفاته بنفس راضية، سألهم :

ـ لماذا لا تترددون علينا بالمكتب فى فترات راحتكم، و خاصة فى المساء، وتجلسون معنا، وتعرضون أية مشكلات تصادفكم؟

أجاب أقدمهم :

ـ يا أفندم .. لم يجر العرف على ذلك ... فمنذ أن تم تعييننا و نحن نعرف أن مكتب المباحث به أسرار كثيرة، و لا يصح أن يطلع عليها إلاَّ العاملون به و لم يسبق أن دعانا أحد .

ـ لا توجد أسرار نخفيها عنكم، فأنتم محل ثقة كبيرة، و تسعدنا زياراتكم فى وقت راحتكم للتمرين من جهة، ومن جهة أخرى مساعدتنا.. وبعضكم سيتمرن معى.. والبعض مع زميلى ضابط المباحث.. و من سيبدى تفوقاً سنزكيه للعمل بالمباحث.. ألا تحبون أن تلتحقوا بالمباحث فيما بعد؟

ابتسم صغار الضباط .. وأبدوا رغبتهم واستعدادهم فى التعاون التام، و أظهروا فرحتهم لقضاء وقت فراغهم فى التمرين بمكتب المباحث .

عقب رئيس المباحث على موافقتهم، قائلاً لهم :
ـ أشعر بسعادة حقيقية ... لأن موافقتكم كانت ممزوجة بفرحة ظهرت على وجوهكم ... إننى و زميلى ضابط المباحث كنا قد تناقشنا فى مشكلة الثأر، وجدنا أننا فى حاجة شديدة لكم.. وسنبذل سوياً جهداً مضاعفاً، ولكن قبل ذلك يجب أن تعتقدوا أن الوقاية مهمة جداً، ويلزم لها أن تسير مع العلاج جنباً إلى جنب.

بدأ يشرح لهم الخطة، و معنى الوقاية التى يقصدها، وأهميتها، وكيف أن الوقاية تبدأ من عملهم، حيث أنهم أول من يتلقى بلاغات الأهالى بسبب نزاعاتهم على حدود الأراضى أو مياه الرى أو مشكلات الإرث أو أية خلافات أخرى . و طلب منهم أن يتعمقوا فى حل المشكلة إلى أن يخرج الطرفان راضيان عن الحل، و عدم الاكتفاء بإثبات الحالة بمحضر وإرساله دون حسم للمشكلة . و أن عليهم فى مثل تلك الحالات عرض المشكلة التى لم يتم حلها، عليه أو على زميله ضابط المباحث؛ لمحاولة حلها بمعرفتهما . وطلب منهم أيضاً متابعة ضباط الصف عند قيامهم بإجراء التحقيقات لحل المشكلات وفقاً لهذا المفهوم، و أحاطهم بأنه سيبلغ ذلك أيضاً لزملائه الضباط رؤساء نقط الشرطة ... و أوضح لهم أنه لو نفذ ذلك بإتقان، فلن تحدث بالمركز حوادث قتل بسبب تلك الخلافات، و بالتالى لا يكون هناك حوادث قتل بسبب الثأر أيضاً .

اقترح عليهم بأن ينضم شرطيان سريان إلى ضابط منوب الليل أثناء مروره بالسيارة " الجيب "؛ لملاحظة حالة الأمن ليلاً، و التأكد من وجود العساكر بدركاتهم ... فرحبوا بذلك .
عرض رئيس المباحث كل ذلك على المأمور ... فأيده و شجعه .

لم يكتف رئيس المباحث بمتابعته لمندوبى تنفيذ الأحكام يومياً؛ للوقوف على مجهوداتهم، بل سارع بتكليف مشايخ الخفراء فى أعمال تنفيذ الأحكام وضبط المتخلفين عن التجنيد، كل فى قريته .
و قد حدد لهم يوماً معيناً كل أسبوع للحضور أمامه، بعد أن سلمهم كشوفاً بأسماء كل المطلوب ضبطهم من محكوم عليهم هاربين، أو شبان عن التجنيد متخلفين، و طلب أن يوضح كل شيخ خفراء معلوماته مكتوبة عن الشخص المطلوب فى حالة عدم ضبطه؛ حتى يتمكن هو شخصياً من ملاحقته و ضبطه .

سلم رئيس المباحث صورة من هذه الكشوف أيضاً لأمناء وحدات الاتحاد الاشتراكى بقرى المركز، و هو الذى كان يمثل التنظيم السياسى للدولة وقتها بناءً على اتفاق بينه وبين أمين المركز الذى كان قد أبدى رغبته فى المساهمة والتعاون، و ذلك ليس لضبط الهاربين أو المتخلفين؛ بل لتقديم معلوماتهم عما إذا كانوا مقيمين بالقرية أو غير موجودين بها .

ترتب على ذلك، أن ضُبِطت مجموعة كبيرة من هؤلاء المطلوبين، وتولى ضابط المباحث مهمة مراجعة المعلومات التى تقدم من مندوبى تنفيذ الأحكام ومشايخ الخفراء، و ممثلى الاتحاد الاشتراكى بالقرى، ومقارنتها بعضها ببعض فأصبح الجميع وهم يقدمون تلك المعلومات يتأكدون منها مرات عديدة قبل تقديمها، لعلم كل منهم بأن هناك آخرين سيقدمون معلوماتهم عن هؤلاء المطلوبين أيضاً .

و بالنسبة لمن لم يستدل على وجود أسمائهم من المحكوم عليهم بالقرى، فقد طلب رئيس المباحث من معاونيه الرجوع إلى أصل المحضر والاطلاع على أسماء من بالمحضر وأرقام بطاقاتهم الشخصية أو العائلية حتى يمكن معرفة بيانات أكثر عن هؤلاء الأشخاص الذين لم يستدل عليهم، و نفس الشىء بالنسبة للمتخلفين عن التجنيد، فقد طلب من معاونيه الرجوع للسجل المدنى للاطلاع على بيانات أصل استمارة البطاقة الشخصية وأسماء الشهود حتى يسهل البحث .

و للحقيقة فإن نسبة كبيرة من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا متخلفين أو هاربين، كان مرجعها إلى وجود أخطاء عند تدوين البيانات المعطاة لمندوبى التنفيذ سواء فى الإسم أو فى محل الإقامة .

و مع هذا الجهد المبذول، فإن رئيس المباحث و زميله، ضاعفا من عدد الحملات التفتيشية على البؤر الإجرامية، والأماكن الموجود بها تشكيلات عصابية ... بل إن إحدى القرى الموجودة بحضن الجبل الشرقى، وكان يعيش بها بعض مرتكبى حوادث الخطف و السرقات بإكراه، وُجِّهت لها ثلاث حملات تفتيشية فى يوم واحد ... مع ضوء الفجر ... ثم قبيل الظهر ... والثالثة ... عند العصر ... و ذلك لضبط هؤلاء الخطرين ... وكان يشارك فى هذه الحملات صغار الضباط وقت راحتهم، وكانوا أكثر سعادة بحصيلة تلك الحملات .. من ضبط أسلحة غير مرخصة وضبط بعض هؤلاء الأشقياء .

تفهم الجميع الخطة، وساعد الضباط المنوبون ورؤساء النقط فى تنفيذها، وأصبح الجميع يبذلون جهداً لحل المشكلات الصغيرة.. فمعظم النار من مستصغر الشرر، و ما يتعثرون فى حلها ... يحيطون رئيس المباحث بها علماً، لعله أو زميله يوفقون فيما لم ينجحوا فيه .

ومرت الأيام.. وأُرسِلت إحصائيات تنفيذ لأحكام للمديرية وفقاً للتعليمات المتبعة، وكانت النتيجة أن تقدم المركز قليلاً... ولم يعد ترتيبه فى تنفيذ الأحكام الأخير، وكذلك الحال بالنسبة لموقف المركز بالنسبة لعدد المتخلفين عن التجنيد فقد تقدم ترتيبه أيضاً .. كان لهذا فرحة كبيرة للجميع.. نعم الجميع.. ألم يشارك "الجميع" فى هذا العمل .. فكان هذا التقدم حافزاً لهم؛ لاستمرارهم فى بذل الجهد بل ومضاعفته.

(١٠) تحديث للمعلومات

في مكافحته لرجال العصابات الموجودة ببعض قرى المركز؛ لمنع وقوع حوادث سرقات بإكراه أو قطع للطرق ليلاً أو الخطف، معتمدا على معلومات دقيقة و حديثة؛ لذا فقد أعاد رئيس المباحث توزيع قوة المخبرين، بعد أن قسم العمل ببلاد المركز إلى ثلاث مناطق، البندر، والمنطقة البحرية، و المنطقة القبلية .

أبقى نصف قوة المخبرين فى أماكنها القديمة، و نقل نصفها الآخر إلى مناطق أخرى، فمن كان يعمل بالمنطقة البحرية نقله ليعمل بمنطقة البندر، ومن كان يعمل بالبندر نقله ليعمل بالمنطقة القبلية، و من كان يعمل بالمنطقة القبلية نقله بالتالى ليعمل بالمنطقة البحرية .

ثم قام بعدها بتدوين أسماء المسجلين بدولاب المباحث من ذوى النشاط الإجرامى، و صنفهم وفقاً لمحال إقامتهم بتلك المناطق الثلاثة، بعدها سلم كشوفاً بتلك الأسماء إلى المخبرين الجدد بالمناطق؛ طالباً منهم التحرِّى عن السلوك الحالى لهؤلاء المسجلين، و معرفة ما إذا كانوا يباشرون نشاطهم الإجرامى، أم كفوا عنه، على أن يقدموا نتيجة تحرياتهم هذه مكتوبة خلال مدة حددها لهم .

في الموعد المحدد قدم المخبرون تقاريرهم إلى رئيس المباحث الذى لم يناقشهم فيها، وحفظها لديه بمكتبه. بعدها سلم المخبرين القدامى بالمناطق كشوفاً مماثلة تحتوى على ذات الأسماء، وطلب منهم تقديم تحرياتهم مثلما فعل زملاؤهم الجدد بالمناطق.

ما إن قدم المخبرون القدامى بالمناطق تقاريرهم لرئيس المباحث، إلاَّ وأخذ يقارنها بالتقارير السابقة التى قدمها زملاؤهم الجدد بالمناطق، وبالمقارنة فقد اكتشف عجباً! .

فبعض المخبرين آثر مبدأ السلامة، فكتب عن جميع هؤلاء المسجلين أنهم لايزالون يباشرون نشاطهم الإجرامى، رغم أن البعض منهم، تبين أنه انتقل إلى رحمة الله؛ وفقاً لتقارير المخبرين الآخرين .. أو تبين أنهم مودعون بالسجون حالياً لقضاء عقوبات صدرت ضدهم! . كان هذا درساً قاسياً لبعضهم، تعلموا منه ضرورة الجدية و التأكد من التحريات التى يقدمونها.

ابتغى رئيس المباحث من إجراء تلك التحريات، تحقيق عدة أهداف منها أن يُلِمَّ المخبرون المعينون بمناطقهم الجديدة بذوى النشاط الإجرامى بها؛ ولكى يشعر هؤلاء المسجلون بأنهم موضع تحرِّى حالياً يجريه رئيس المباحث الجديد، فيكفُّون عن نشاطهم الإجرامى، ولو لفترة مؤقتة، فضلاً عن الهدف الأساسى وهو تحديث المعلومات عن ذوى النشاط الإجرامى بدائرة المركز، ومعرفة من لا يزال منهم يباشر نشاطه الإجرامى؛ حتى يمكن العمل على ضبطه .

ولتنفيذ هذا التحديث، طلب من "بلوكامين" المباحث أن يستكمل الملفات الخاصة بالمسجلين، حيث لاحظ رئيس المباحث أن البعض منها غير مكتمل؛ لعدم وجود الصورة الشخصية للمسجل مثلاً أو لعدم وجود "فيش" بصماته، فضلاً على أن معظم الملفات لم يدون فيها تقارير المتابعة، فكان "البلوكامين" يستدعى يومياً بعض المسجلين لاستكمال ملفاتهم، ثم يعرض هؤلاء الأشخاص بملفاتهم على رئيس المباحث؛ ليتعرف عليهم، و يلم بأحوالهم، ثم يحذرهم من عودتهم لارتكاب الجرائم .

وكثيراً ما كان هؤلاء المسجلون يحضرون للمركز صحبة إحدى الشخصيات المعروفة بالمركز كأعضاء مجلس الأمة ـ الشعب فيما بعد ـ أو رجال الإدارة من عمد و مشايخ بلد .

والطريف أن بعضهم كان يهمس سراً لرئيس المباحث بأن الشخص الذى جاءوا ليشفعوا له، ماهو إلاَّ مجرم خطير حقيقةً، وأنه لا يزال يباشر إجرامه، وأنهم جاءوا كَرهاً، أو مُجاملةً لعائلته!! .

لم تكن الرياح تسير دوماً وفق ما تشتهى السفن، فمع الحركة النشطة التى دبت بوحدة مباحث المركز، و التفاف صغار الضباط حول ضابطى المباحث، و معاونتهم لهما فى عملهما خاصة فى أوقات راحتهم، فقد فوجىء رئيس المباحث "بالبلوكامين" الخاص بأعمال المباحث يبلغ بمرضه، و يحصل على إجازة مرضية طويلة من " القومسيون" الطبى.. وما أسهل الحصول على تلك الإجازات المرضية بتلك المناطق وقتها ...

و يأتى أحد المخبرين و يهمس فى أذن رئيس المباحث ويبلغه بأن"البلوكامين" يجلس طوال النهار فى المقهى المواجه لمركز الشرطة ... و يتأكد رئيس المباحث من صحة ذلك .

لعل "البلوكامين" فعل ذلك لأن الحمل ثقل عليه ... ربما، أو قصد إرباك العمل حتى لايقدر عليه رئيس المباحث الجديد؛ كى يعود العمل إلى سابق العهد، فيتصرف " البلوكامين " وحده بالنسبة لإخلاء سبيل المتهمين والمفرج عنهم ... ربما . لكن الأمر الأكيد أنه لم يكن مريضاً، بل كان متمارضاً، فتم نقله إلى مركز آخر. و لم يتعطل العمل فقد كان رئيس المباحث يجيد القيام بكل الأعمال المختص بها "بلوكامين" المباحث، حيث كان قد تعلم تلك الأمور فور تخرجه، والتحاقه ضابطاً حديثاً بأحد مراكز الوجه البحرى ... وقتها كان قد غضب من مأمور المركز؛ لتكليفه أحد الكتبة ليعلمه القيد بالدفاتر... أما الآن و هو بصدد مواجهة تلك المشكلة التى قابلته فإنه يتذكر ذلك المأمور بكل خير، و يدعو له بطول العمر .

أسرع رئيس المباحث بتعيين و تعليم أحد العاملين بوحدة المباحث ليتولى أعمال"البلوكامين". كان هذا الشخص ـ لحسن الحظ ـ يتمتع بقدر كبير من الذكاء، و خطه واضح و جميل ... فلم يرتبك العمل، بل انتظم و سار إلى الأحسن .

أصبحت حجرة المباحث، ليل نهار، تدب فيها الحركـة، والضبـاط فـى نوبتجياتهم يحيطون ضابطى المباحث بكل ما يعرض عليهم من مشكلات، سواء تم حلها أم لم يتم، فيقوم ضابطا المباحث عندئذٍ للعمل على حل المشكلات التى استعصى أمرها على الحل، والاستعانة ببعض الشخصيات ذات المكانة، والتى يرتضيها طرفا النزاع فى بعض الأحيان .

وقد ساعد على بقاء الضباط بمكتب المباحث ليلاً، أن مَرِضَ أحدُ الضباط" بالدوسنتاريا "، و أرجع الطبيب المعالج السبب إلى المأكولات التى يتناولها فى العشاء بالنـادى، فخشى الجميـع على أنفسهم وفضلوا تنـاول وجباتهم ببيوتهم، فَنَدُرَ الجلوس بالنادى ليلاً للعشاء ... و فضل بعض صغار الضباط أن يقضوا وقت راحتهم فى التعلُّم بمكتب المباحث .كان رئيس المباحث يرحب بذلك ... فقد توحد فكرهم ... وأصبح الجميع أكثر غيرة؛ لإنجاح الخطة فى تقليل حوادث القتل التى تقع بسبب المنازعات ...
ولكن مع كل هذا الحذر... فلم تتوقف حوادث القتل... ولم تتوقف حوادث السرقة، و كان بعضها غامضاً وغريباً

(١١) قضية لها غرابتها

فى صباح يوم، و أثناء جلوس رئيس المباحث بمكتبه، ما أن تناول رشفة واحدة من كوب الشاى الذى أمامه، إلاّ و يدق جرس التليفون، المتحدث هو وكيل بريد إحدى القرى الذى يخبره باكتشافه لسرقة بعض محتويات مكتب البريد عند توجهه لتسلم عمله فى الساعة السابعة و النصف صباحاً، حيث وجد الخفير النظامى المعين بالدرك الموجود به مكتب البريد ينتظره أمام المكتب ومعه الطواف، اللذان أخبراه بأنهما لاحظا خلع شباك المكتب . فقام ثلاثتهم بفتح المكتب حيث اكتشفوا سرقة السماعة وبعض الأختام البريدية، ومنها الختم ذو التاريخ، والأختام الموجود عليها حروف أجنبية، وبعض الدفاتر الخاصة بالحوالات، و أضاف وكيل المكتب بأنهم وجدوا الخزنة سليمة لم يمسسها سوء، و أنه لا يتهم أحداً معيناً بالسرقة .

أسرع رئيس المباحث لمكان الحادث برفقة نائب المأمور، تم معاينة الحادث بدقة، يحمد الله رئيس المباحث فى سره لعدم سرقة الخزنة، لاحظ أن مرتكب الحادث لم يحاول فتحها، يبدو أن السرقة أرتكبت بدافع الكيد لأحد العاملين بالمكتب أو بالخفير القائم على حراستها، فالأشياء التى سرقت لا ينتفع بها إلاّ بمكاتب البريد، علاوة على أن أدراج المكتب وجدت سليمة، وغير مبعثرة، و لم يعبث بها نهائياً .

بالتحرى السريع تبين أن وكيل المكتب و طواف البريد من قريتين متجاورتين و هما على علاقة حسنة بالأهالى، و سمعتهما طيبة، فاستبعد رئيس المباحث أن يكون الدافع لارتكاب الحادث هو النيل منهما . ولم يتبق إلا الخفير النظامى المعين بالدرك؛ ليدخل دائرة الفحص والتحرى.

تبين أن سمعته طيبة أيضاً. لكنه من إحدى العائلات الكبيرة بالقرية والتى كانت لها خصومة ثأرية سابقة مع إحدى العائلات المماثلة، وقد تساوت رؤوس القتلى بين العائلتين، لكن لم يتم الصلح بينهما بعد.

يا ترى ما الدافع لارتكاب الحادث إذن ؟

ساورت الشكوك رئيس المباحث فترة من الوقت .. حيث تساءل :

ولم لا يكون الحادث قد ارتكبه أحد المسجلين من ذوى النشاط الإجرامى بالقرية؟. لكنه فى النهاية، وبعد إجراء التحريات اللازمة استبعد هذا التصور.

أخيراً يصل إلى الحقيقة .. فمع تكثيف التحريات .. يتبين له أن أحد أفراد العائلة التى كانت فى خصومة ثأرية مع عائلة الخفير النظامى المعين لحراسة الدرك الموجود به مكتب البريد هو مرتكب الحادث ؛ وذلك للنيل من الخفير المذكور. أكد صحة تلك التحريات عثورهم على المسروقات مدفونة بالأرض بالقرب من مكتب البريد كما ورد بالتحريات.

لم يكتف رئيس المباحث باتخاذ الإجراءات المعتادة ، فى مثل تلك الحالات ، وهى تحريره لمحضر وعرضه على النيابة .. لكنه اهتم بإجراء صلح فورى بين العائلتين بحضور بعض رجال الإدارة وبعض القيادات الشعبية .. لم يكن فى تصور رئيس المباحث إمكان وقوع حادث السرقة هذا بسبب الخصومة الثأرية ... لكن ذلك حدث فعلاً .

وقد سره أن أرسل مدير البريد بالمحافظة خطاب شكر لمدير الأمن يثنى فيه على مجهودات المركز فى هذا الحادث.

لم يمض وقت طويل على هذه الحادثة ، إلا ويقع حادث قتل ، تبين أنه بسبب الأخذ بالثأر .. لكن أحاطت به ظروف غريبة!.

ففى ظهر أحد الأيام ، أبلغ للمركز من عمدة إحدى القرى المجاورة للجبل الشرقى ، بالعثور على شاب وُجِدَ قتيلاً بحقله ، ولم يتهم أهله أحداً بقتله .

أسرع رئيس المباحث وبرفقته زميله وقوة من المخبرين إلى موقع الحادث ، لاحظا أن المجنى عليه أُطلِقَ عليه عدة رصاصات ، بعضها عن قرب وموجهة إلى رأس القتيل ، فأحدثت فتحات مستديرة بها شوهت منظر الجثة ، دل ذلك على أن القاتل لم يكتف بقتل هذا الشاب فحسب ، بل أراد التمثيل بجثته انتقاماً وكرهاً .. ومع كل ذلك لم يتهم أهله أحداً بقتله ، حيث قرر والده عدم وجود خصومة بينه وبين أى أحد ، وأيد العمدة أقوال والد المجنى عليه من عدم ارتباطهم بخصومة ثأرية .

لاحظ رئيس المباحث أن الحادث وقع فى الحقل الموجود خلف منزل المجنى عليه حيث يقيم مع أسرته ، وأن الأرض كانت خالية من أى محصول ، فقد كان القتيل ووالده بصدد إعدادها للزراعة ، كما لاحظ وجود منزل لأحد جيران القتيل على بعد قليل على رأس حقل له أيضاً ، والذى كان خالياً من أية زراعات هو الآخر. إذن لقد كان بوسع ساكنى المنزل رؤية القاتل فور سماعهم أصوات الطلقات ، نظراً للخلاء الذى يحيط بموقع الحادث.

شعر رئيس المباحث أن أهل القتيل لا يودون اتهام أحد؛ لرغبتهم فى الانتقام .. كما لاحظ عدم وجود الجار وزوجته حول الجثة مع بقية أفراد أسرة القتيل؛ لمشاركتهم الأحزان والمواساة، ومن هنا بدأت خيوط الحادث تتكشف ، فجار القتيل كان له ابن شاب مرض ثم مات. لذا فقد قام بقتل ابن جاره هذا ، والذى يقارب فى العمر ابنه ، بالإضافة إلى التمثيل بجثته انتقاما وثأرا.

شئ عجيب .. ابنه مرض ثم مات .. ما ذنب ابن جاره إذن ؟ تساءل رئيس المباحث فى سره . أجابته التحريات على تساؤله هذا ، حيث تبين أن الابن الذى مرض ثم مات ، كان قد شاهد والد القتيل وهو يضع بندقيته غير المرخصة بحفرة فى الحقل خلف منزله ، ثم اكتشف مالك البندقية سرقتها ، فتوجه إلى جاره معاتباً من قيام ابنه بسرقة البندقية ، حيث أنه الوحيد الذى يعلم بمكانها ، فهى مدفونة فى الأرض ، ولا يتردد على الأرض أحد خلاف الأسرتين.

نفى الجار بأن يكون ابنه هو الذى سرق البندقية ، بينما الآخر يقسم بأنه هو الذى سرقها؛ لأنه الوحيد الذى يعلم بمكانها ؛ حيث شاهده وهو يدفن البندقية بالأرض ... وتطور العتاب بين الجارين إلى مشادة خرج على أثرها صاحب البندقية المسروقة غاضبا من منزل جاره ، مهددا أنه سوف يدعو على من سرق البندقية بأن تحدث له مصيبة ، وبالطبع لم يستطع إبلاغ الشرطة عن سرقة البندقية؛ لأنها لم تكن مرخصة.

ويشاء القدر أن يمرض الابن ـ المتهم بسرقة البندقية ـ مرضا احتار فيه الأطباء ، ثم توفى بعد مرضه بعدة أيام.

حزن والده عليه حزنا شديدا وغضب من جاره؛ لاعتقاده بأن الوفاة كانت نتيجة لدعائه، وبالتالى فإنه السبب فى وفاة نجله، حيث كان متأكدا من أن الابن هو الذى سرقها .

لذا فقد أضمر فى نفسه شرا وانتوى الانتقام لوفاة ابنه بأن يأخذ بثأره، ويقتل ابن صاحب البندقية؛ ليقهر أبيه عليه حزنا وكمدا، وقام بتنفيذ ذلك .

ولم يكن فى تصور المباحث أيضا أنه يمكن أن تقع حوادث قتل للثأر بسبب تلك الاعتقادات.. لكن ذلك حدث فعلا أمامه، تأكد من تلك التحريات، ثم تأكد أكثر وأكثر عندما قام والد القتيل بأخذ ثأره بعد فترة بأن قتل جاره انتقاما لمقتل ابنه .

عزم رئيس المباحث على أن يلتحق بالدراسات العليا بكلية الحقوق بإحدى الجامعات، ومقرراً بأنه سوف يتقدم ببحث عن الثأر يتناول فيه كافة جوانبه.

فأخذ يستعد لذلك بأن داوم على تدوين بعض الأمور والنقاط الهامة عن الثأر، والتى يرى أنها ستفيده فى بحثه هذا من واقع القضايا؛ لتكون الدراسة واقعية ومستندة إلى حقائق ، أدى ذلك إلى كثرة مناقشاته مع زميله ضابط المباحث حول عادة الأخذ بالثأر وكذلك من بعض أهل تلك المنطقة ممن يترددون على مكتبه.

(١٢) وحدة وطنية

تمر الأيام .. و الشهور .. و يزداد الود و التفاهم و الاحترام المتبادل بين رئيس المباحث و زميله الضابط، فأفكارهما وأسلوبهما فى العمل متقاربان . و مع مرور الأيام يزداد أيضاً قلق رئيس المباحث؛ لاقتراب انتهاء المدة المقرر قضاؤها لزميله ضابط المباحث للعمل بالصعيد لينقل إلى إحدى الجهات التى أبدى رغبته فى النقل إليها، خاصة و أن تقاريره خلال تلك الفترة كانت جميعها بدرجة الامتياز .

و تصدر الحركة، و يجد ضابط المباحث فيها أنهم استجابوا لتلبية طلبه، حيث تقرر نقله إلى إحدى الإدارات بالقاهرة، وهو ماكان يرجوه و يتمناه .

ويلتف الضباط حول ضابط المباحث وهم يهنئونه، ويرجونه أن يبقى معهم عاماً آخر .. لقد أحب ضابط المباحث المكان والزملاء، ولم تهن عليه عشرتهم .. فيستجيب لرغبتهم، ويقدم التماساً للعدول عن تنفيذ النقل هذا العام، و يرجئه للعام القادم. لكنه يشترط على زملائه الضباط مازحاً بضرورة أن يشترى أحدهم تليفزيون ؛ ليروحوا عن أنفسهم بمشاهدته بعض الوقت لعدم توافر أماكن للترفيه أو التسلية كالسينما و المسرح، فلم يكن أىٌ من الضباط الغير متزوجين يمتلك تليفزيون، والجهاز الوحيد الذى كانوا يشاهدون عليه البرامج كان بالنادى، حيث يكتظ بالمشاهدين من أهل البلدة، فيسرع رئيس المباحث بتلبية تلك الرغبة فوراً .

أصبح الضباط بعدها يتجمعون فى كثير من الليالى بمسكن رئيس المباحث بعد أن يفرغوا من عملهم فيسهرون أمام التليفزيون الذى كانت تختتم برامجه ـ وقتها ـ قرب منتصف الليل، و كثيراً ما كان يستأذن منهم رئيس المباحث؛ بحجة الاستراحة قليلاً بحجرة نومه، لكنه كان يروح فى سبات عميق، و تعَوّدَ الضباط على ذلك، فلم يكن تصرفه هذا يغضبهم، فكانوا يستمرون فى السهر بعدها، ويطفئون الأنوار والتليفزيون، ثم يغلقون باب الشقة عند انصرافهم .

أدى ذلك لزيادة تآلف الضباط مع بعضهم، وتقريب أفكارهم، كما كانت تلك اللقاءات فرصة لعرض ما يصادف أحدهم من متاعب أو مشكلات على زملائه ... فيبدى الآخرون آراءهم لحلها، من منطلق روح الزمالة الخالصة، و لم تخل تلك الجلسات من مداعبات و طرائف بين الزملاء، فيظلون يتندرون بها لعدة أيام .

أحياناً كانت الحوادث تئد تلك السهرات من بدايتها، خاصة الحوادث الكبيرة، مثل الحريق المروع الذى شب ليلاً، بمنازل بعض الأسر المسيحية، الموجودة فى موقع متطرف خارج " كردون " البندر . كان الحريق كبيراً، فقد اشتعلت النيران بأسطح المنازل المبنية من الطوب اللبن، و ساعد على سرعة الاشتعال وجود عيدان الحطب و القش مُخزَّناً فوق تلك الأسطح، علاوة على شدة الرياح فى تلك الليلة . كما أمسكت النيران بسعف النخيل الموجود بكثرة بين تلك المنازل المتجاورة ... كان السعف المشتعل يحدث فرقعة، ثم يتطاير إلى أعلى فى السماء مضيئاً، بعدها يسقط على الأسطح، فيشتعل القش والحطب فوراً . كان المنظر مروعاً ...

لكنه كان فى جنبات أخرى منه رائعاً .. حين هبَّ بعض الفتيان المسلمين يلقون بأجسادهم داخل النيران؛ لينقذوا بعض ساكنى تلك المنازل التى حاصرتها النيران من كل جانب، وكان ذلك يمثل تجلياً حقيقياً لمعانى الوحدة الوطنية حين تشتد الخطوب .

وعلى الرغم من وصول قوات الإطفاء على وجه السرعة ... وبذلها مع الأهالى جهداً شاقاً ... إلاَّ أن الخسائر المادية كانت فادحة ... فقد أتت النيران على بعض البيوت ... و لم تتركها إلاَّ هشيماً تذروه الرياح، و الأكثر فداحة وجود خسائر فى الأرواح، من بينهم أطفال كانوا نائمين وقت الحريق، فلم يشعروا به، ولم يتمكن أحد ـ للأسف ـ من إنقاذهم .

أثبتت المعاينة أن الحريق حدث نتيجة قيام إحدى النسوة بإشعال الفرن الموجود بمنزلها؛ لعمل فطائر لقرب حلول أحد أعياد المسيحيين، فتطايرت بعض الشرارات منه، وأمسكت بالقش الموجود بجواره ...

ومن الحوادث الأخرى التى ساهمت فى وأد بعض تلك السهرات ذلك الحادث الذى وقع فى الليلة التى كان يحتفل فيها التليفزيون بحفله الغنائى الساهر ـ فى ذلك الوقت ـ بمناسبة عيد شم النسيم، والذى كان يُطلقُ عليه حفل عيد الربيع، كان الضباط قد استعدوا لقضاء سهرتهم لمشاهدة هذا الحفل دعوا لمشاركتهم فيه وكلاء النيابة وبعض أطباء المستشفى الأميرى.. لكن ما أن بدأت الموسيقى الافتتاحية للأغنية تعزفها الفرقة الموسيقية، إلاَّ

ويدق جرس الباب، ويقدم أحد الجنود إخطـاراً بوقـوع حـادث قتل أرسـله الضـابط المنوب، فشغل الحاضرون عن الاستماع بالحادث، و أصبح حديثهم عنه هو شغلهم الشاغل، ومن منهم الذى سينتقل للمعاينة و التحقيق . و لم يكن هناك مفر إلاَّ ترك بعضهم الاحتفال، و الانتقال الفورى لمعاينة الحادث، حيث انتقل أقدم وكلاء النيابة، و معه أقدم الضباط الموجودين وكان رئيس المباحث .

قرأ رئيس المباحث إخطار الحادث عدة مرات ... فأسماء المتهمين بارتكابه لا تزال عالقة فى ذهنه، فهم من المعروفين لديه؛ لأنهم من ذوى النشاط الإجرامى، و سبق أن استدعاهم للحضور؛ لاستكمال ملفاتهم، و تحذيرهم من معاودة ارتكاب حوادث السرقات التى عُرِفُوا بارتكابها ... و قد وعدوه بأنهم سيسلكون طريقاً مستقيماً . لكن هاهم يضربون بوعدهم عرض الحائط ـ كما ورد بالإخطار ـ فإنهم متهمون بقتل أحد المواطنين بالرصاص من عائلة خصومهم . كظم رئيس المباحث غيظه منهم لاستهتارهم، و عدم تنفيذ ماوعدوا به .. و عزم على أن يسرع بضبطهم و تقديمهم للنيابة بالمعلومات الجنائية عنهم، إظهاراً لسوء سلوكهم .

كانت جثـة القتيل ملقـاة على أحد جانبى طـريق زراعى ضيق، ولا يبتعد موقع الحادث كثيراً عن بعض المساكن المتطرفة بالبندر، تبين على ضوء "الكلوبات" و كشافات الإضاءة أن القتيل أُصيبَ بعيار نارى واحد فى الصـدر وبلل الدم جزءاً كبيراً من جلبابه،

و قد عُثِرَ على كوفية من الصوف سمراء اللون مبللة بالدماء أيضاً، ملقاة بجوار الجثة . ذكر المُبلِّغ ـ شفاهة ـ لوكيل النيابة بأنه كان يسير مع المجنى عليه فخرج عليهم من الزراعات أربعة اشخاص ينتمون لعائلة لها خصومة ثأرية مع عائلة القتيل، و قد حددهم المُبلِّغ بالاسم فرداً فرداً، مقرراً بأنه يعرفهم شخصياً، حيث أطلقوا النار على القتيل من أسلحة مختلفة كانت معهم، فأصيب المجنى عليه بإحدى الرصاصات فى صدره بينما لاذ هو بالفرار؛ ليبلغ أسرة القتيل ومركز الشرطة بالحادث.

أُستُكمِلَ التحقيق بسراى النيابة، حيث أعاد المُبلِّغ ماسبق ذكره، وأضاف بأنه لا تربطه بالقتيل صلة قرابة، و لكن تجمع بينهما صداقة فقط ... قرر وكيل النيابة فى نهاية التحقيق سرعة ضبط المتهمين، وتقديم تحريات المباحث عن الحادث . فتوجه رئيس المباحث مع أول ضوء فى الفجر، مصطحباً قوات كبيرة معه إلى مسكن المتهمين الأربعة وجد ثلاثة منهم بمساكنهم فتم ضبطهم.

ذكر المتهمون الثلاثة أن المتهم الرابع ـ و هو شقيقهم ـ قد تم تجنيده منذ عدة أيام، و هو موجود حالياً بالقوات المسلحة، بل أنه لم يحضر منذ تجنيده!.

تم إرسال المتهمين إلى النيابة، ومعهم بيان بسوابقهم، واتهاماتهم فى محضر ضبطهم، و تقرر حبسهم .

أثار عدم وجود المتهم الرابع والإدعاء بأنه مجند بالقوات المسلحة انتباه رئيس المباحث .. أراد أن يتأكد من هذا الأمر ... فكلف بعض المخبرين بعمل تحريات جدية عن الحادث .. و هل كان المتهم الرابع موجوداً حقيقةً يوم الحادث؟ . فضلاً عن قيامه هو بذاته بالتحرى من بعض أعوانه من المرشدين ومعارفه بالمنطقة ... فاكتشف عجباً ! .

اكتشف رئيس المباحث من التحريات، أن المُبلِّغ هو القاتل ... ولكن القتل كان بنوع من الخطأ ... فقد كان المُبلِّغ بمنزل أقارب القتيل ليعرض عليهم مسدساً غير مرخص؛ لبيعه لهم ... وأثناء فحصهم له انطلقت من المسدس طلقة رصاص أصابت المجنى عليه فى صدره، فتوفى على الفور ... فماذا يفعلون؟ . هداهم تفكيرهم بأن يحمله المُبلِّغ إلى خارج المساكن، و يضعه فى الطريق الزراعى، ثم يدَّعِى بعدها بأن خصومهم الأربعة هم الذين أطلقوا النار عليه، فقتلوه ... معتقدين بأن شهادته ستكون لها اعتبار خاص من حيث الثقة لأنه ليس من عائلة القتيل و لا من دينه، بل هو مجرد صديق، و لاتوجد خصومة بينه و بين المتهمين .

ماذا يفعل رئيس المباحث إذن؟ إن المتهمين من ذوى السمعة السيئة و من المشهور عنهم ارتكاب حوادث السرقات، وسبق اتهامهم جنائياً فى حوادث قتل بعض الأفراد من عائلة القتيل . إنه حقيقةً كان سيرضيه لو أن التحريات أسفرت بأنهم الجناة، فيتخلص من شرورهم وارتكابهم لحوادث السرقات؟ لكنها أمانة العرض .. فيستهل محضر تحرياته عن حادث الجناية رقم "....

قتل" بسرده لما حدث ومن تطور الخصومة بين العائلتين، ثم يذكر ماحدث تفصيلاً عندما كان يعرض المُبلِّغ مسدسه عليهم، و يفحصه بعضهم، و اثناء ذلك تخرج طلقة بنوع الخطأ من المسدس فتصيب القتيل فى صدره، بعدها احتاروا جميعاً فى التصرف نحو الجثة .

و مع الحقد الأسود الذى يملأ قلب العائلة ضد أفراد عائلة المتهمين، وصداقة المُبلِّغ لهم، اتفقوا على تصوير الواقعة كما وردت فى البلاغ .

يضيف رئيس المباحث فى محضر تحرياته :

"كأن الله أراد أن يكشف الحقيقة، حيث تبين أن المتهم الرابع جُنِّدَ بالقوات المسلحة، ولم يكن موجوداً وقت الحادث، كما أن المُبلِّغ و قد كان حريصاً وهو يحمل المجنى عليه لإخفاء أثر جريمته بعدم تلوث الأرض بنقط الدم التى تسيل من موضع الإصابة، حيث قام المُبلِّغ بوضع كوفيته على موضع الإصابة ليوقف نزيف الدم، و يسهو عليه، فيتركها بجوار الجثة ... بعدها يتوجه إلى منزله فيُغيِّر ملابسه الملوثة بالدم ثم يتوجه إلى المركز ليقدم بلاغه .

لقد عرف بحقيقة الحادث جميع أهالى البلدة و شاع الأمر بينهم، فاستنكروه وعلمت به زوجة المجنى عليه، لذا فإنها قررت بأنها لاتعرف شيئاً عن الحادث أوعن قاتلى زوجها، وذلك بالتحقيقات عند استجوابها " .

ثم يختتم رئيس المباحث محضر تحرياته بقوله :
" إن إثبات براءة البرىء لا تقل شأناً عن إدانة المتهم ... والمتهمون فى هذا الحادث ـ رغم سوء سمعتهم ـ أبرياء من هذا الحادث، فهم لم يرتكبوه، وكل ذنب جنوه هو وجود الخصومة الثأرية القائمة بينهم وبين عائلة القتيل .. و التى كانوا ـ حقيقةً ـ مرتكبى حوادثها السابقة " .

وعند عرض المتهمين على قاضى المحكمة لتجديد حبسهم يقرر إخلاء سبيلهم .

و تمر عدة أيام طويلة عقب هذا الحادث، و ينشغل رئيس المباحث بعدة حوادث أخرى ... و ذات يوم عند الظهيرة، يحدثه مدير نيابة المركز تليفونياً مخبراً إياه بأنه سيزوره بالمكتب؛ لتناول القهوة سوياً مع مفتش النيابات الموجود حالياً بسراى النيابة للتفتيش ... و يرحب بهما رئيس المباحث، ثم يضع السماعة على التليفون، ويفكر بعمق... فما سر هذه الزيارة ياترى؟

(١٣) براءة البرئ

لم يمض وقت طويل، إلاَّ و كان مفتش النيابات، و معه مدير النيابة بمكتب رئيس مباحث المركز، الذى رحب بهما كثيراً، وقد كمن فى صدره تساؤل عن سر هذه الزيارة .

لكن سرعان ما تكشف سرها، عندما أخبره مدير النيابة بأن مفتش النيابات استرعى انتباهه ماكتبه رئيس المباحث فى أحد محاضر تحرياته بشأن حادث قتل، حيث ورد فيه عبارة " إن إثبات براءة البرىء، لا تقل شأناً عن إدانة المتهم ... "، وأثبت براءة المتهمين من تهمة القتل المنسوبة إليهم، رغم ماعرف عنهم من سوء سلوك و نشاط إجرامى، فأراد مفتش النيابات أن يبدى إعجابه لشجاعته بموقفه هذا، بالحضور شخصياً إليه؛ ليهنئه و يشد من أزره .

و قد أيد الضيف ماذكره مدير النيابة، عندئذ عقب رئيس المباحث على هذا الإطراء بتوجيه الشكر لهما، مبدياً بأن مافعله هو ما أملاه عليه ضميره والواجب .

ومع تناول القهوة دار حديث عن الخصومة، وتطورها فى تلك القضية ثم تطرق الحديث إلى جريمة الثأر بصفة عامة، وما هوالسبيل للخلاص من هذه العادات الذميمة بتلك المجتمعات،

وبعد النقاش أجمع ثلاثتهم على أن تفشى هذه الظاهرة مرجعه إلى قصور فى الناحيـة التعليمية من جانب، وعدم وجود التوعية الإعلامية بقدر كاف من جانب آخر، ثم لعدم تفهم الناس لمعنى القصاص، وكيفية تطبيقه، من جانب ثالث . ورغم قصر الجلسة، فقد شعر رئيس المباحث بسعادة وهو يستمع لتلك الآراء المستنيرة التى سمعها، فقام بتوديعهما بحفاوة كبيرة حتى باب المركز .

فور عودته إلى مكتبه، يرن جرس التليفون، حيث يعلم بورود إخطار من إحدى نقط الشرطة التابعة للمركز، بوقوع حادث جناية قتل، و تضمن الإخطار بأن القتيل كان قد حدث بينه و بين شقيقه و أحد أبناء عمومته خلاف؛ لعدم دفع مبلغ خمسة جنيهات، كانا قد طالباه بها، و لما رفض القتيل دفعها اعتديا عليه بالضرب، فما كان من المجنى عليه إلاَّ أن فر هارباً خارج داره، عندئذ تعقبه المتهمان، وأطلقا عليه عدة أعيرة نارية أثناء عدوه، فأصابت إحدى الرصاصات مؤخرة رأسه، فأردته قتيلاً فى الحال، وجاء بالإخطار أن الحادث وقع أمام زوجة المجنى عليه.

توقف رئيس المباحث برهة مشدوهاً، وهو يستمع إلى إخطار الحادث، فهو لا يتصور أن يكون سبب القتل الخلاف حول دفع خمسة جنيهات، و أن يقع بين أشقاء؟! .

لذا فقد كان شغوفاً لمعرفة سبب الحادث ... و هل هو حقيقة كما ورد بالإخطار؟

على عجل كان بالسيارة و معه قواته، متجهاً لمكان الجريمة ... وقد ترك الجميع السيارة فور وصولهم للقرية القريبة من موقع الحادث .. فالحادث يقع بجزيرة فى قلب النيل ... و قد أعد شيخ الخفراء عدداً من القوارب الصغيرة لنقل القوات إلى الجزيرة و العودة بهم، و بعد أن عاين رئيس مباحث المركز الجثة، و التى كانت ملقاة على بعد قليل من مسكن المجنى عليه، سأل زوجة القتيل عن معلوماتها، كانت فى الثلاثين من عمرها، وآثار الحادث تظهر جلياً على قسمات وجهها ... أجابت وهى فى حالة حزن عميق، بأنه فى مساء اليوم السابق للحادث حضر شقيق زوجها و ابن عمه، و أدلت بأسمائهما حيث كلفا زوجها بدفع مبلغ خمسة جنيهات؛ لشراء ذخيرة، فماطلهما ووعدهما بأنه سيدفع المبلغ فى الصباح، فانصرفا بعد أن هدداه بالقتل إذا لم يدفع هذا المبلغ، و فى اليوم التالى حضر المذكوران و مع كل منهما بندقية .. ـ لاتعرف نوعها ـ و طلبا منه المبلغ كما وعد ... فرفض زوجها دفعه، وعندئذ أمسك به المتهمان، و قاما بالاعتداء عليه ... ففر زوجها خارج المسكن، بينما تعقبه المتهمان، و هما يطلقان النار من بندقيتيهما، و اللتين كانتا محشوتين بالرصاص، و قد أصيب زوجها بعيار نارى و سقط قتيلاً على الفور، بينما فر المتهمان عقب ذلك .

لم تخرج أقوال زوجة المجنى عليه عما جاء بالإخطار، وتبين أن سبب الحادث الظاهرى هو الخلاف لعدم دفع مبلغ الخمسة جنيهات . أما تفصيلات ذلك، فهو ما أظهرته تحريات رئيس مباحث المركز، حيث تبين له أن المتهمين هما مرتكبا الحادث فعلاً . و أن عائلتهما فى خصومة ثأرية مع إحدى العائلات الأخرى بالجزيرة، و التى قامت مؤخراً بقتل أحد أفراد خصومهما، و نتج عن هذا الحادث أن تساوت الرؤوس بين العائلتين .

و منذ ذلك التاريخ انقسمت العائلة الأولى، والتى ينتمى إليها قتيلنا هذا و المتهمان إلى قسمين .. قسم يرى أن رؤوس القتلى بين العائلتين المتخاصمتين قد تساوت، و أنهم يجب أن يتصالحوا مع العائلة الأخرى، وإنهاء هذا الصراع، و كان القتيل من مؤيدى هذا الرأى . و قسم آخر من نفس العائلة تزعم ضرورة الانتقام من العائلة الأخرى لأنهم كانوا قد عقدوا صلحاً معهم، و إن كانوا يعلمون بعدم جديته، وفقاً لعادات أهل المنطقة؛ لعدم تساوى الرؤوس، وكان المتهمان فى هذا الحادث يتزعمان ذلك الرأى .

لذا فقد فرضا على أفراد العائلة مبالغ مالية يدفعها كل منهم للصرف منها على شراء الذخيرة و الأسلحة . وقد فرضا على المجنى عليه دفع مبلغ خمسة جنيهات، إلاَّ أنه أخذ يتعلل بحجج، ويؤجل الدفع لعدم رغبته فى الاستمرار فى مسلسل الثأر؛ نظراً لتساوى رؤوس القتلى،

و أكد رئيس المباحث فى محضر تحرياته على ما ذكرته زوجة القتيل فى التحقيق من أن المتهمين أطلقا النار على المجنى عليه بقصد قتله، و لم يمنعهما من تنفيذ ذلك صلة القربى أو صرخات وولولة زوجته .

و قد تمكن رئيس المباحث من ضبط المتهمين، و قررت النيابة حبسهما، وظل هذا الحادث يشغل فكر رئيس المباحث مدة طويلة ... فهذا التصرف الأهوج أنشأ خصومة ثأرية جديدة ... وسوف يشب الأطفال أبناء القتيل يتامى، ترضعهم أمهم لبن الأخذ بثأر أبيهم من الصغر .. و ممن؟ .. من عمهم وأقاربهم!!.
أخذ فكر رئيس المباحث يجوب فى أنحاء أخرى ... فأية حياة يعيشها هؤلاء الناس من العائلتين المتخاصمتين وهما على سطح الجزيرة؟ إنهما العائلتان الوحيدتان اللتان تقيمان عليها .. و بدلاً من تعاونهما سوياً، و هما يعملان فى مجال الزراعة ... يتخاصمان ... فيقبع كل فرد بمسكنه من قبل غروب الشمس حتى طلوعها ... حيث الظلام يعم الجزيرة ... و يشعر كل فرد منهم بالخوف يملأ قلبه طوال الوقت؛ خشية مباغتة خصمه له و الانتقام منه ...

(١٤) و أقبل العيد

قَرُبَ موعد العيد، و العيد بالنسبة لرجال الشرطة يعني زيادة المرور والدوريات، وتكثيف الوجود الأمني بالأسواق والطرقات، و قد يقتضي الأمر إعلان حالة الطوارئ بين رجال الشرطة، و هذا معناه إلغاء العطلات والراحات، أو على الأقل تنظيم العطلة فيما بينهم بما يسمح بتشديد الإجراءات الأمنية؛ لمنع وقوع الحوادث الجنائية، المحتمل وقوعها وفق طبيعة كل مركز أو قسم .

اهتم رئيس المباحث و زميله بتلك الإجراءات بالمركز، فقاما بالمرور على المناطق الساخنة، و المحتمل وقوع حوادث للثأر بها؛ لوجود خصومات ثأرية بين عائلاتها، و زارا بعض كبار العائلات المتخاصمة أثناء مرورهما، و نبَّها بضرورة عدم ارتكاب حوادث ثأرية خلال فترة العيد، و حذَّرا بأن من سيخالف ذلك، سينال هو و عائلته تدابير أمنية شديدة، ثم قاما بتوزيع قوة الشرطة السريين على الأماكن المهمة؛ ليكونوا عيوناً لهما، يمدونهما بالمعلومات أولاً بأول . أما الدوريات اللاسلكية الراكبة، فتم اعتماد المأمور لخطة مرورها؛ لتأمين الطرقات للقادمين لقضاء عطلة العيد بين الأهل، كما كُلِّفت تلك الدوريات أيضاً بالمرور لتأمين الطرق المؤدية للمقابر صباح يوم العيد، حيث تكثر زيارات العديد من الأهالي لأقاربهم الموتى.

مرت الساعات الأولى من العيد، دون أن يصل إلى سمع رئيس المباحث وقوع أى حادث، فيحمد الله على ذلك، لكن فرحته لم تدم طويلاً ... فقد أخطره عامل تليفون المركز بوقوع حادث قتل بإحدى القرى الهادئة، و التى لا توجد بها خصومة ثأرية حالياً .

فالخصومة التى كانت بين عائلتين بها، تساوت رؤوس القتلى بينهما، وتم إجراء صلح جدى عقب ذلك، و لهذا فلم يكن ينتظر رئيس المباحث وقوع أية حوادث ثأرية بالعيد بها .
فَلِمَ و قع هذا الحادث ياترى؟

بانتقال رئيس المباحث لموقع الحادث، تكشف له السر فى ارتكاب تلك الجريمة فقد أخبره عمدة القرية بأن القتيل كان قد شهد واقعة قتل حدثت أمامه منذ عامين، بين أفراد من العائلتين المتخاصمتين وقتها، وعلى أثرها تساوت رؤوس القتلى بينهما، فتصالحتا عقب ذلك .
و لقد أدلى القتيل بشهادته، رغم عدم وجود صلة قربى له بأى أحد من العائلتين، فتم حبس مرتكبى الحادث، ثم صدرت ضدهم أحكام بعقوبة الأشغال الشاقة، و مع قدوم العيد زاد ضيق و حنق أهل هؤلاء المحكوم عليهم على هذا الشاهد . فأعدوا عدتهم وأردوه قتيلاً .

تذكر رئيس المباحث، و هو يستمع لحديث العمدة، حادث القتل الذى وقع فى اليوم الأول لوصوله، و الذى أرتكب أمام أعين رجل كان بداخل كشكه الخشبى، لكنه أبى أن يشهد بما رآه، و ادعى بأنه لم يشاهد الواقعة، ولم تنفع وقتها محاولات رئيس المباحث لحثه للإدلاء بشهادته ... و اليوم يعاين جثة رجل كل جريرته أنه أدلى بشهادته ! .

يتأمل رئيس المباحث فيما يحدث، و يتيقن من أن الطريق لتغيير سلوك وطباع أهالى تلك البلاد طويل و شاق .

انقضت أيام عطلة العيد، و لم تقع حوادث أخرى، و بعد مرور عدة أيام تالية، إذ برئيس مباحث المحافظة يتصل تليفونياً برئيس مباحث المركز، يخبره بأن محكمة الجنايات أصدرت اليوم أحكاماً بالأشغال الشاقة المؤبدة غيابياً على المتهمين من "أولاد فاروق". ويطلب منه الإسراع و الانتقال فوراً؛ لضبطهم، و ذلك فى القضية التى سبق اتهامهم فيها بمقتل ابن عمدة القرية.

فى دقائق معدودة، كان رئيس المباحث يركب بمقدمة السيارة " اللورى" و بجواره زميله ضابط المباحث، و معهما قوات من المخبرين، و المجندين بأسلحتهم المختلفة، يتبعهم سيارة " جيب "، بها أحد الملازمين، و بعض الجنود المسلحين، و السيارتان مزودتان بأجهزة لاسلكى متصلة بالمركز وبمديرية الأمن ... إتجه الركب إلى ناحية القرية الموجود بها المحكوم عليهم .

أثناء الطريق يتذكر رئيس المباحث يوم أن قام بتوصيلهم لمساكنهم فى اليوم الأول لتسلمه العمل واكتشافه بأنهم محجوزون منذ فترة طويلة دون وجه حق؛ بحجة خشية أن يتعدى عليهم أحد، والحقيقة أن ذلك كان مجاملة للعمدة الذى يكيد لهم؛ لوجود خصومة ثأرية بينه وبينهم .

ويتذكر كيف أن هؤلاء الأشخاص سرّوا لموقفه هذا، ودعوا له ولزميله بأن يمد الله فى عمريهما، و يتذكر أيضاً ما ذكروه له بأنهم ظُلِمُوا فى العديد من التـهـم التى رمـاهـم بـها العمـدة، ويتذكر ما وعدهم به ـ وقـتها ـ بأنه سيفحص تلك القضايا، و هل هى تهم كيدية حقيقة كما يدَّعون أم لا .. ويلوم نفسه، و يعترف بأنه تقاعس لانشغاله بالعمل اليومى، حيث أرجأ تنفيذ ما وعد به.

فى الطريق تحدث مع نفسه، تصور أنه لو تمكن من ضبط أحدهم؛ فإنه قادر على إقناعه بإحضار إخوته أيضاً، فإن هذا فى صالحهم، فالأحكام صدرت غيابية، و هذا يعنى أنهم عند المعارضة فى الأحكام، فسوف يُفرَجُ عنهم، و سيعاد نظر القضية مرة أخرى، فى الوقت نفسه يتخـوف رئيس المباحث؛ لئلا يتمكن من ضبطهم اليوم، لعلمه بأنهم يسكنون أسفل الجبل، ويسهل عليهم الهروب و الإقامة به، و سوف يسىء هذا إلى موقف المركز بالنسبة لتنفيذ الأحكام، خاصة بعد أن تقدم ترتيبه خطوات للأمام .

تصل السيارتان إلى القرية، ثم تتوقفان عند آخر مدى بالطريق يمكن أن تسير عليه السيارات، يهرول رئيس المباحث و زميله و ملازم الشرطة، و مِن خلفهم قوات المخبرين والمجندين فى إتجاه مساكن المحكوم عليهم، بعد أن تنبه على القوات بعدم ضرب النار؛ إلاَّ إذا أصدر رئيس القوة أمراً بذلك، اقتربت القوات من المساكن .. أصبحت المسافة بينهم وبين المساكن حوالى النصف كيلو متراً ...

اقتربت من المساكن أكثر ... فجأة شاهدوا جمعاً من الرجال ... ستة .. سبعة .. عشرة ... أحد عشر .. بعضهم يحمل بنادق .. يخرجون من المساكن . يفرون إلى ناحية الجبل الواقع خلف مساكنهم ... خطوات قليلة، ثم يصعدون إليه ... أمر رئيس المباحث بتوقف القوات ... بينما استمر هو فى التقدم بمفرده .. نادى عليهم بأعلى صوته، يريد أن يتحدث معهم، يريدهم أن يستمعوا إليه، توقفت مجموعة الرجال عن التقدم ناحية الجبل... حدثهم بألاَّ يخافوا، وهو لا يزال يعدو بمفرده تجاههم، فكر رئيس المباحث بسرعة، فإن طبيعة المنطقة فى صالح هؤلاء الهاربين، فهم سيركبون الجبل، وسيحتمون بالصخور والنتوءات الموجودة بـه فيصبحون فى موقع أفضل منه، حيث قواته فى أرض رملية مكشوفة، ولا يصلح موقع الأرض للاشتباك معهم الآن .

يبدو أنهم تشاوروا فى الأمر، بعدها صاح أحد الرجال مخاطباً رئيس المباحث، بصوت عال :

ـ عوِّد يا بك ... أرجوك يا بك ... عوِّد .

لكن رئيس المباحث استمر فى السير فى إتجاههم بمفرده ... فجأة لاذ هذا الجمع بالفرار، و الصعود إلى الجبل بسرعة رهيبة ... سمع رئيس المباحث صوت طلقتين فى الهواء ...
المرجّح أن تكون قد صدرت من أحد هؤلاء الهاربين .

عندئذ توقف رئيس المباحث عن السير، عاد إلى قواته والشرر يتطاير من عينيه، بسرعة قسم القوات إلى مجموعتين ..

رَأَسَ مجموعة منهما، و رَأَسَ زميله ضابط المباحث المجموعة الثانية، و كانت أكثر عدداً من المجموعة الأولى أوضح لهم أنه ومجموعته سيصعدون إلى الجبل من يسار موقع صعود الهاربين بينما المجموعة الأخرى ستصعد الجبل من الناحية اليمنى؛ لحصارهم بوسط هاتين المجموعتين حتى يتم ضبطهم .. تناقشا فى أمور أخرى أكثر تفصيلاً، نـبَّه عليهم بضرورة أن يتم التحرك ثم العودة سريعاً من الجبل قبل غروب الشمس.

صعد الجنود الجبل كالوحوش الضارية، فالحماس وحب المغامرة أمر طبيعى لمن هم فى أعمارهم، وكان موقف "أولاد فاروق" من رئيس المباحث؛ لعدم إطاعتهم له، دافعاً له على أن يكون أكثر نشاطاً مثل الجنود، فأخذ يتسلق الجبل بسرعة فائقة أيضاً ... أصبحت القوات قريبة من قمة الجبل إنهم يقتربون أكثر .. يصلون أخيراً إلى القمة .. بدت قمة الجبل فى شكل يخالف ما كان فى ذهن و خيال رئيس المباحث ... كان يتصور أنه بصعوده إلى القمة سوف يجد انحداراً لأسفل من الجهة المقابلة، لكنه رأى أرضاً فسيحة ممتدة إلى مسافات بعيدة حتى الأفق ... وجد هذه الأرض الفسيحة عبارة عن مجموعات متقاربة من التلال مختلفة الارتفاعات و الأحجام ... عندئذ خشى رئيس المباحث على جنوده من أن يتفرقوا، ويبتعد أحدهم عن المجموعة، فيضل خطاهم، ثم تبتلعه الصحراء .

بحزم نـبَّه بألاَّ يبتعد أحدهم عن المجموعة ... كلف أحد المخبرين بمتابعة تنفيذ ذلك .

يجول رئيس المباحث ببصره فى كل إتجاه؛ بحثاً عن "أولاد فاروق " و من معهم ... و عن مجموعة قواته الأخرى . هاهو يكتشف مجموعة المحكوم عليهم لقد بعدوا كثيراً ... يصعدون التلال ثم ينزلون منها بسرعة كبيرة. ينشرح صدر رئيس المباحث، فقد قربت ساعة حصارهم و ضبطهم ... فلا شك أن المجموعة الأخرى ستظهر حتماً ... ثم تحاصر المجموعتان هؤلاء الفارين ......

يعيد رئيس المباحث البحث بدقة أكثر؛ لعله يعثر على زميله ومجموعته ... لكن دون جدوى !.

يلاحظ أن معالم القرية قد اختفت تماماً .. الأشجار العالية والنخيل الذى كان يُرى بعيداً .. اختفى هو الآخر، و لا أثر له، السماء فقط من فوقه، والتلال من حوله، و الهاربون أمامه ... يتابعهم بنظره .. يلاحظ أنهم قد قسموا أنفسهم إلى مجموعتين أيضاً .. تظل مجموعة بأسلحتها فوق قمة التل تتولى حماية المجموعة الأخرى أثناء هبوطها من التل، و إلى أن تعتلى قمة التل الآخر، حيث تتولى هى حماية المجموعة الأولى أثناء هبوطها، و صعودها إلى قمة التل ... و هكذا لابد من مجموعة منهم فى الموقع الأعلى؛ لحماية المجموعة الأخرى عند تحركها. تذكر رئيس المباحث، ساعتها ماكان يتلقاه من محاضرات بفرقة البحث الجنائى عن أسلوب مطاردة رجال العصابات بالجبال .

تذكر أنه كان وقتها لم يُعِر هذه المحاضرات الاهتمام الكافى، حيث كان يعمل بإحدى المحافظات الريفية بالوجه البحرى، والتى لا يوجد بها جبال أو تلال .

عندئذ أعاد رئيس المباحث تنظيم مجموعته عند تحركها ... حيث جعل مجموعة من الجنود دائماً أعلى التل عند تحرك بقية المجموعة .

لا يزال رئيس المباحث يجوب ببصره فى المكان بحثاً عن زميله الضابط ومجموعته لاحظ أن الشمس كست السماء باللون الأرجوانى، استعداداً لرحلة المغيب ... ثم لا أثر لزميله ومجموعته .

فماذا هو فاعل؟

إن عنصر الزمن ليس فى صالحه ... فهو يخشى أن يحل الظلام، وليس معه أو زميله أجهزة إتصال لاسلكية ... فالأجهزة مثبتة بالسيارات الواقفة بالقرية، و المسافة تزداد اتساعاً بينه وبين المحكوم عليهم ... ثم إنه يعرف الجهات الأصلية الآن من موضع قرص الشمس الذى بدأ الهبوط إلى خط الأفق لقرب حلول موعد الغروب .. و عليه أن يستغل ذلك و يعود ... و فعلاً أوقف متابعة المحكوم عليهم، و عاد متجهاً لناحية الغرب ... حيث أخذت القوات تصعد تارة، و تهبط تارة أخرى ... إنه فى سباق مع الزمن ... يخشى حلول الظلام .... أخيراً يصل إلى حافة قمة الجبل .... يشاهد الأشجار والزراعات و المبانى لكنها مبانى قرية أخرى، تبعد عن الأولى مسافة كبيرة ... يحاول وقواته الهبوط .. يكتشف أن الموقع لمحجر بالجبل ... يخاطرون بالهبوط من هذا الموقع ... تتفتت الأرض تحت أرجلهم ... يسقط البعض منهم متدحرجاً ...

و منهم رئيس المباحث الذى أُصيبَ بخدوش طفيفة، وتمزقت ملابس العيد الجديدة التى كان يرتديها .

يصلون إلى السفح .. فيسرع رئيس المباحث متجهاً إلى حجرة تليفون القرية الملحقة بدوار العمدة، يتصل بالقرية الأخرى ... يطمئن على وجود زميله و القوات، و الذى أفاده بأنه عاد بعد صعوده للجبل و لعدم تمكنهم من معرفة مكان وجود القوات الأخرى أو المحكوم عليهم فقد عادوا إلى مكان السيارتين . يطلب منه رئيس المباحث الحضور بالسيارتين ... و يعودان سوياً إلى المركز، بينما فِكرُ رئيس المباحث مشغول بإعداد خطة مُحكمة؛ لضبط المحكوم عليهم الهاربين .

(١٥) اللقاء

مر يومان على صدور الأحكام ضد " أولاد فاروق "، أعد فيهما رئيس مباحث المركز العدة؛ لمعاودة العمل على ضبطهم، و ليكون أكثر استعداداً من المحاولة السابقة، بالتزود بالمعلومات الدقيقة عن المنطقة، و أماكن اختباء المحكوم عليهم، و تجهيز العتاد اللازم لمثل تلك الحملات و المطاردات بالجبل، باستكماله لبعض الأجهزة التى كانت تنقصه مثل أجهزة الإتصال اللاسلكى للأفراد؛ ليتزود بها رؤساء المجموعات، و بوصلة، و نظارات مكبرة؛ لتساعدهم على رؤية الأشياء البعيدة بوضوح .

و بينما هو يستكمل تجهيزاته، و يعد خطته، إذ يدخل عليه بمكتبه أحد أعوانه من المرشدين، و هو" الشيخ محمد أبو عمرو". ويطلق الناس عليه لقب الشيخ ـ رغم أنه ليس معمماً ـ وذلك لتبجيله وتوقيره، لما له من كلمة مسموعة بالمنطقة، و لقد استمد كلمته المسموعة هذه؛ لمجاهرته بقول الحق، و صلاته الطيبة بالكثير من الأهالى، و بعض المسئولين .

رحب به رئيس المباحث، و دعاه للجلوس، وضع الشيخ عصاه بجواره وجلس . هذه العصا لا يسير بدونها، فهو يتكىء عليها؛ لعرج فى ساقه اليمنى؛ نتيجة إصابتها فى شبابه بعدد من الطلقات، عندما كانت عائلته فى خصومة ثأرية مع إحدى العائلات إنتهت بالتصالح بينهما منذ مدة طويلة .

حدثه " الشيخ أبو عمرو " بأنه جاء ليرجوه فى أمر مهم، ويأمل أن يجاب طلبه ولا يعود خائباً... ابتسم له رئيس المباحث، و هو يقول :

ـ طلبك مجاب ... لو كان فى مقدورى .

ـ فى مقدورك بإذن الله .

ـ و ما هو؟

ـ " أولاد فاروق " ... حمَّلُونى رسالة اعتذار لسيادتك ... إنهم يتأسفون بشدة، و سوف يقومون بتسليم أنفسهم لك .

تجهم وجه رئيس المباحث، و اعتدل فى جلسته، ثم وجه حديثه بجدية للشيخ، قائلاً :

ـ و أنا لا أقبل اعتذارهم ... و سأضبطهم فى أى مكان كانوا ...

ـ الكل يعلم ذلك ... لكن إن كانوا هم سيسلمون أنفسهم ... فَلِمَ التعب يابك؟

ـ و ما الذى يمنع من قيامهم بتسليم أنفسهم إذن؟

ـ إنهم يرجون مقابلة سيادتك أولاً؛ ليعتذروا لك، و لتسمع منهم ما يودون قوله بشأن تسليم أنفسهم، إنهم يثقون فى كلمتك ووعدك ويودون أن يستمعوا منك شخصياً هذا الوعد .

ـ أى وعد يريدونه منى؟

ـ إنهم يخشون من اعتقالهم، بعد قيامهم بالمعارضة فى الأحكام، فإذا وعدتهم سيادتك فسوف يطمئنون، ويسلمون أنفسهم، وهم يشكرونك لعدم أخذك حريمهم وإيداعهن المركز؛ للضغط عليهم لتسليم أنفسهم .

أخذ رئيس المباحث يفكر فى الأمر، ثم عاد بعد برهة؛ ليحث الشيخ قائلا :

ـ بصفة مبدئية، ليس لدىَّ مانع، بشرط ألا يتأخر التسليم عن يومين من اللقاء، وسأعطيك الرد النهائى باكر إن شاء الله، بعد أن أرجع لرئاستى .

حيَّاه " الشيخ أبوعمرو"، وانصرف، على أن يعود إليه فى اليوم التالى .

أخذ رئيس المباحث يُقَلِّب الأمر فى فكره ... إن عدد المحكوم عليهم الهاربين فى جنايات بمركزه، هو أحد عشر محكوماً، و جميعهم أحكامهم صدرت منذ سنوات بعيدة ... بعضهم أشارت التحريات بملفاتهم أنهم يقيمون حالياً خارج الجمهورية ... و البعض منهم متهرب و يقيم ببلاد أخرى خارج حدود المركز، و أحدهم فقط هو الذى يقيم فى آخر حدود المركز بالجبل الشرقى المتاخم ببلدته، و هذا المحكوم عليه الهارب متهم فى ثلاث جنايات بالقتل مع سبق الإصرار و الترصد، وجناية رابعة لمقاومته السلطات، وصدرت ضده أحكام غيابية مجموعها ستون عاماً... لكن للأسف لم ينفذ منها أى حكم ... بل إن بعض أحكامه قاربت على السقوط، رغم المحاولات العديدة ـ منذ صدور تلك الأحكام ـ للعمل على ضبطه، و ذلك لاحتمائه بالجبل. إذن فإن الأمر سيكون أكثر سوءاً، لو أضيف للمحكوم عليهم الهاربين " أولاد فاروق " الثلاثة، و قد يشجعهم وجود الجبل خلف مساكنهم مباشرة على عدم تسليم أنفسهم، و احتمائهم به أيضاً .

عرض أمر اللقاء و أسبابه على رئيس مباحث المديرية، فأبدى موافقته، على أن يكون اللقاء فى سرية تامة، رحب مأمور المركز بذلك، خاصة أن العمدة منذ صدور الأحكام و هو دائم الاتصال بالمسئولين؛ لحثهم على سرعة ضبطهم . وعندما حضر " الشيخ أبوعمرو" فى اليوم التالى، تحدد موعد اللقاء فى الغد ظهراً، حيث يتوجه رئيس مباحث المركز بالسيارة "الجيب" إلى دار " الشيخ أبوعمرو"، و يصطحبه معه؛ ليتجها سوياً إلى حيث اللقاء .

فى الموعد المحدد تقابلا، ثم توجها مترجلين بمفردهما، بعد تركهما السيارة لتنتظر بجوار حجرة تليفون القرية، بعيداً عن مكان اللقاء، وقد تنبه على السائق بالتعليمات اللازمة .

كان الطريق ضيقاً و متعرجاً و محاطاً بأشجار الموالح من جانبيه، فهو يخترق بستاناً كبيراً، و يؤدى إلى الدار التى سيعقد بها اللقاء .

كانت الدار متواضعة، احتوت حجرة الضيافة الخارجية، على عدد من الأرائك الخشبية، مغطاة بالأكلمة، يجلس عليها خمسة من الرجال، لعلهم أقارب المحكوم عليهم، كما لاحظ رئيس المباحث وجود عدد مماثل من الرجال يجلسون خارج الدار . رحب الجميع بالضابط، وخاصة صاحب الدار ... لكن لم يكن بها المحكوم عليهم ! .

بين كلمات الترحيب بالضابط، التى كان يتفوه بها الجالسون من كل حين و آخر، كان يسود الحجرة صمت، خلال هذا الصمت كان فكر رئيس المباحث ينشغل فى أمر المحكوم عليهم، أخذ يسأل نفسه عن سبب عدم حضورهم؟ ...

ألعلّهم أرادوا أن يطمئنوا أولاً من عدم وجود قوات للشرطة قد تهاجمهم . ثم فكر فى سبب اختيارهم لهذه الدار؛ لعقد اللقاء ... أجاب هو نفسه بأنه اختيار موفق لصالحهم، فالسيارات لاتستطيع أن تصل إليها؛ لعدم وجود طرق ممهدة تسمح لسير السيارات عليها، فضلاً عن أن الدار محاطة بالأشجار من نواحٍ عديدة، فيمكن لبعض أقارب المحكوم عليهم الاختباء و كشف أية تحركات لو حدثت ضدهم، و إبلاغها لمن بالدار .

يمر الوقت بطيئاً ... و لم يحضر المحكوم عليهم بعد، يخرج "الشيخ أبو عمرو" من الحجرة، ثم يعود موجهاً حديثه لرئيس المباحث قائلاً :

ـ دقائق ... و يكون " أولاد فاروق " هنا .

ثم يعود الصمت يلف أرجاء الحجرة .

فجأة ... ترتفع أصوات غاضبة من بعض الرجال خارج الحجرة، لكنها تصل إلى أسماع الجالسين بداخلها، فيخرج بعض الرجال، لكنهم لا يعودون، يستمر النقاش و الأصوات الحادة ... ويخرج لهم " الشيخ أبو عمرو"؛ ليستطلع الأمر ... تخف حدة الحديث تدريجياً، يعود "الشيخ أبو عمرو" و معه الرجال الذين كانوا جالسين بالحجرة ... يحدث الشيخ الضابط موضحاً ماحدث قائلاً :

ـ الابنة الصغيرة التى كانت تكشف الطريق " لأولاد فاروق " لقدومهم ، شاهدت ابن العمدة و آخر بأسلحتهما، بجوار بعض أشجار النخيل بقرب الطريق، فعادت إليهم و أخبرتهم بذلك، ثم حضرت إلينا؛ لتخبرنا بما حدث ...

فأخبرتُهم بأنه لا أحد يعرف نهائياً بأنهم سيحضرون إلى هنا...
لا العمدة ولا ابن العمدة... و لعل وجودهما محض صدفة .
وطلبت منهم سرعة استدعائهم، و حمايتهم .
ـ خير ما فعلت .

عادت كلمات الترحيب يتفوه بها الجالسون، ويعتذرون عن حديث بعضهم بالصوت المرتفع، يحمد الله رئيس المباحث فى سره، و يسأل نفسه :
ـ ماذا كان يحدث لو أن ابن العمدة تمكن من أحد "أولاد فاروق" وقتله؟
و يمر الوقت بطيئاً ... و يتم توزيع أكواب الشاى الصغيرة مرة أخرى على الجالسين ....
ثم يدخل أحدهم الحجرة مبتسماً؛ ليخبر رئيس المباحث بأن "أولاد فاروق" قد حضروا ... فيشعر الجميع براحة و يدور الهمس بينهم .
يدخل المحكوم عليهم الثلاثة ... و يتجهون مباشرة إلى رئيس المباحث، يسلمون عليه بحرارة، يجلسون على الأرض ... يعتذرون له؛ لعدم إطاعة أمره بالتوقف عن الجرى، يخبرونه بأن العمدة أشاع بالبلد بأنه استصدر أمراً باعتقالهم، و أنه سيتم تنفيذه فور ضبطهم؛ و لهذا هربوا إلى الجبل . يعرضون عليه اقتراحاً بأن يقوم أكبرهم سناً بتسليم نفسه أولاً،

و بعد الإفراج عنه، يسلم الاثنان الآخران نفسيهما فى اليوم التالى مباشرة، يتحججون بحجة أنهم يحصدون زراعاتهم، لكن رئيس المباحث يتفهم قصدهم من هذا الترتيب، وهو التأكد من عدم وجود أمر بالاعتقال . يوافق رئيس المباحث على ذلك، مع تأكيده على ضرورة الالتزام بالمواعيد .

ثم يروى أحدهم بأنهم ظُلِموا فى التهم التى نُسِبت إليهم، حيث إنهم لم يشاركوا أبداً فى أية معركة ضد أى فرد، بخلاف المعركة التى قُتِلَ فيها ابن العمدة، و أن عائلة العمدة ـ وقتها ـ كانت هى المعتدية عليهم، بينما هم كانوا يدافعون عن أرضهم فقط، التى يريد العمدة اغتصاب قطعة منها . ثم يسترسل الراوى مبيناً حالة البؤس التى يعيشونها، هم و زوجاتهم و أطفالهم، منذ أن نشأت الخصومة، وكيف أنهم محاصرون و مهددون طوال الوقت ....

بعدها ينهار و يبكى، و تتساقط دموعه على خديه ... وينتهى اللقاء .... وينفذون ما وعدوا به، حيث يسلمون أنفسهم وفقاً للمواعيد التى تحددت، و هذا الأمر ليس بغريب على رجال الصعيد ... الالتزام بكلمتهم .

يقوم رئيس المباحث بدراسة القضايا الثلاث التى أُتـُّهِمَ فيها "أولاد فاروق" بالشروع فى قتل بعض مواطنى قريتهم، بناء على البلاغات التى أخطر بها عمدة القرية، فيجد أنها حدثت فى تواريخ مختلفة متعاقبة بعد حادث مقتل ابنه، و يَرِدُ بها بأن المواطن / فلان الفلانى أُصيب بعيار نارى، و أنه يتهم "أولاد فاروق" الثلاثة،

و أن العمدة يطلب إرسال سيارة الإسعاف؛ لنقل المصاب إلى المستشفى، و فى كل مرة يجد وكيل النيابة المصاب قد نفى اتهامه "الأولاد فاروق"، بل يقرر أنه لم يتهمهم أصلاً للعمدة، أو لأى أحد آخر، و مؤكداً بأن إصابته حدثت من عيار طائش . بينما يصر العمدة فى التحقيق على أقواله التى وردت ببلاغه؛ معللاً نفى المصاب لاتهام " أولاد فاروق " بقوله بأن المصاب ربما عدل عن أقواله؛ لرغبته فى الانتقام . و قد ترتب على اتهام العمدة لهم فى كل مرة أن يتم ضبط المتهمين وسؤالهم، ولا يهمه أن يُفرَجَ عنهم فى الحال من النيابة ... لأنهم سَيُحجزون بالمركز عدة أيام ! .

يُجرى رئيس المباحث تحرياته، ويتأكد من كيد العمدة لهم فى تلك الاتهامات الباطلة، و مع إحساس رئيس المباحث بمشاعر العمدة لفقد ابنه إلاَّ أن واجبه كعمدة يقتضى منه قول الحق، وهو مالم يفعله، فيحرر تقريراً رفعه لرؤسائه بمديرية الأمن، طالباً إلغاء العمدية بهذه القرية وإنشاء نقطة شرطة بها.

(١٦) مصالحة بالإكراه

أمر رئيس المباحث بانصراف قوة تنفيذ الأحكام من مكتبه، بعد أن تابع هو وزميله الضابط جهودهم اليومية، وتوجيه الشكر لهم لورود إحصائية تنفيذ الأحكام من المديرية، و التى استبان منها أن المركز أصبح ترتيبه الثالث من بين أحد عشر مركزاً وقسماً بالمحافظة، بعد أن كان ترتيبه الأخير فيما مضى .

بعدها استعد الضابطان للنزول إلى حديقة النادى للجلوس بها؛ لتمضية بعض الوقت، لعلّهما يجدان بالحديقة جواً ألطف من هذا الجو الخانق الذى يشعران به الآن بالمكتب .

لكن سرعان ما يعدلان عن فكرة النزول إلى الحديقة؛ كى يفحصا بلاغاً مهماً ورد إليهما فى تلك اللحظة، فقد حضر لمكتبهما سائق سيارة أجرة، وأبلغهما شفاهة بأنه قام بتوصيل أحد المواطنين، والمعروف له ـ و قد ذكر اسمه ـ إلى جهة الحدائق غرب البلد، وأثناء سير السيارة ببطء؛ لعبورها جسر صغير كان يقف عليه وقتها اثنان مسلحان من خصوم الراكب، و ما أن شاهدا الراكب بالسيارة، إلاَّ وأمر أحدهما السائق بإيقاف السيارة فوراً، فامتثل للأمر، و قد أنزلا الراكب منها، و سار معهما دون أن يعترض أو يستغيث إلى ناحيـة الحدائق المملوكة لعائلتهما؛ بحجة أنهما يودان أن يتحدثا معه بشأن الصلح عدة دقائق فقط، وأضاف السائق بأنه لم يستطع أن يفعل شيئاً؛ لأنه غير مسلح، وأنه لم يحاول الاستغاثة أو المقاومة لأن منطقة الحدائـق مملوكة لعائلتهما، و قد انتظر عودة الراكب ما يقرب من النصف ساعة إلاَّ أنه لم يعد إلى السـيارة .

فحضـر فـوراً للإبـلاغ خشـية حدوث مكروه له، فيوجه إليه الاتهام، خاصة أن هناك العديد من الناس قد شاهدوا المجنى عليه وهو يركب السيارة من موقف السيارات الأجرة .

اهتم رئيس المباحث بالبلاغ .. اعتراه إحساس كبير بالقلق... إنه يعلم بوقوع حوادث جنائية قديمة بين عائلة المجنى عليه وعائلة المتهمين، و قد وقعت قبيل تسلمه العمل بالمركز، نشأت عن تلك الحوادث خصومة ثأرية لازالت قائمة؛ لعدم تساوى رؤوس القتلى بين العائلتين . بعدها أُتُخِذت تدابير أمنية وقتها ضد أفراد العائلة المعتدية، حيث تم اعتقال البعض منهم، وإبعاد بعضهم الآخر عن المحافظة، مما دعا البعض من أقارب المعتقلين و المبعدين أن يطلبوا إجراء الصلح مع العائلة الأخرى بهدف أن يتكمنوا بعد ذلك من الإفراج عن أقاربهم، و إلغاء قرار إبعادهم عن المحافظة؛ بحجة أن الصلح قد تم إلاَّ أن العائلة الأخرى رفضت ذلك، و تزعم فريق الرفض هذا الشخص الذى اُختُطِفَ من السيارة، و لا شك أنه الآن واقع تحت تهديد السلاح لإجباره على الموافقة بإتمام الصلح بينهم .

يشعر رئيس المباحث بأن الوقت يمر بطيئاً ... فالدقائق، بل الثوانى أصبحت تقلقه .

كلف ضابط المباحث بالتوجه بسرعة إلى الأماكن التى يحتمل وجود المتهمين بها ... كماكلف بعض الشرطة السريين بالتوجه بسيارة أخرى لسؤال أهل المجنى عليه عنه، و ما إذا كان قد عاد إلى بيته من عدمه ...

لم تصل أية معلومات حتى الآن لرئيس المباحث، فيزداد قلقه ... كلف سيارات الدورية بعمل أكمنة بالمنافذ، حتى لا يتم هروب المتهمين و معهما المجنى عليه ... لكن بعض المعلومات بدأت تصل له تفيد بعدم التوصل إلى أماكن وجود المتهمين .. و لم يتم العثور على الشخص المختطف .... يفكر رئيس المباحث فى محاولات أخرى، لا يوجد سبيل يفيد فى الكشف و البحث عن المجنى عليه إلاَّ وطرقه .

أثناء ذلك قام رئيس المباحث بسؤال المُبلِّغ فى محضر تفصيلى تضمن ماسبق ذكره شفاهة فى بلاغه ... نبه على أحد أفراد الشرطة السريين بعدم اتصال أحد بالسائق نهائياً خشية التأثير عليه من أحد أفراد عائلة المتهمين؛ للعدول عن أقواله، و ذلك لحين عرض المحضر و السائق على النيابة، تم تنفيذ ذلك بكل دقة ... و أعادت النيابة سؤال المبُلِّغ، فكرر ما سبق أن أبداه من أقوال بمحضر الشرطة، فأمرت بضبط المتهمين، وطلبت تحريات المباحث حول ظروف الحادث .

مع طلوع الفجر ازداد تحرك القوات ... ولكن دون جدوى، فلم يتم العثور على المجنى عليه، أو مكان وجود المتهمين، و الذى يدعى أقاربهما بعدم معرفة مكان وجودهما ..... ثم جاءت تحريات لرئيس المباحث تحمل أنباء محزنة ... فقد أفادت بأن المتهمين قاما بالإجهاز على المجنى عليه و قتله .. أحدهما أطلق الرصاص عليه .. والآخر فصل رأسه عن جسده حتى لا تعرف شخصيته .. ثم قاما بإلقاء جثته فى النيل، و دفن رأسه فى أرض غير معلومة .

كم يتمنى رئيس المباحث أن تكون التحريات غير صادقة ... لكنه مع ذلك وبمشاركة ضباط من المديرية إتجهوا للبحث عن الجثة فى النيل، و البحث عن مكان وجود رأس القتيل . و كُلِّفت الشرطة السرية و الخفراء بملاحظة النيل فى المسافة الواقعة بين مكان الحادث إلى نهاية زمام المركز من الناحية البحرية حيث إتجاه التيار ... و قد تم العثور على الجثة أخيراً، وانتشالها، وقد تعرف عليها أهل المجنى عليه ... بينما تمكن رئيس المباحث فى الوقت نفسه من ضبط المتهمين اللذين أنكرا ما نُسِبَ إليهما . و لكن النيابة أمرت بحبسهما حبساً مطلقاً .

أخذ رئيس المباحث و زميله يتابعان السائق؛ حتى لا يقع تحت تهديد؛ كى يعدل عن أقواله، فيكتشفان أنه أصبح مريضاً لا يغادر منزله، ثم مات!.

و يتحادث رئيس المباحث مع زميله تعليقاً على هذا الحادث قائلاً :

ـ منذ أيام مضت عاينت جثة رجل رفض أن يسير فى مسلسل الثأر والانتقام ... راجياً الصلح لتساوى رؤوس القتلى بين العائلتين، لكن شقيقه قتله بالرصاص لموقفه هذا، ثم بعدها أعاين جثة رجل آخر رفض الصلح مع خصومه . إن المشكلة تزداد تعقيداً . فهذا الحادث الأخير، و ما سبقه من حوادث جنائية أنشأت تلك الخصومة كانت سببها أمور صغيرة، و كان يمكن معالجتها .

ـ إذن فالطريق الذى نسير فيه هو الـحل .. و هو الاهتمام بالمشاكل التى تصل للمركز أو النقط، و العمل على حلها .
ـ هذا صحيح .. و لكنى أتساءل أين دور التعليم فى مكافحة عادات وتقاليد الثأر؟ ... أين دور أجهزة الإعلام؟ ... أين التوعية الدينية السليمة؟ ... إن الأمور التى تكون مبنية على معتقدات و تقاليد أو عادات ... لا تستطيع الشرطة وحدها تغييرها .
ـ معك حق ... كل الحق .

(١٧) الثأر من الخاطفين

هلَّ شهر يولية، بحرِّه الخانق، و القلق الذى يخيم على معظم ضباط الشرطة خلاله، حيث تُعلن فيه حركة تنقلاتهم ... لكن يوجد بينهم من يستقبله بفرح ... و هم الضباط العاملون بالصعيد الذين أمضوا المدة المقررة للعمل به، فهم يعتقدون أن الوزارة ستلبى رغباتهم التى أبدوها بالنقل إلى الجهات التى حددوها .

من بين هؤلاء الضباط الذين استقبلوا شهر يولية بشىء من الفرح والبشاشة، كان مأمور المركز و نائبه . حقيقة أن المأمور لم يقض بالمركز إلاَّ عاماً واحداً، لكنه عمل فى موقع آخر بالمحافظة عامين آخرين، بينما نائب المأمور أمضى الثلاث سنوات بالمركز... عامين منهم معاوناً للشرطة، والثالث نائباً للمأمور. لذا فإن الابتسامات كانت تعلو شفاههما، والأفعال التى تصدر عنهما كانت كلها طيبة، وأكثرا من جلسات السمر ليلاً بحديقة النادى، حيث يلتف من حولهما الضباط، وبعض الموظفين الغرباء، ولسان حالهم يدعو قائلاً: " عُقبى لنا يارب "! .

و مِنَ الذين انتهت مدة خدمتهم بالصعيد، و لهم صلة وثيقة بعمل رئيس مباحث المركز، اثنان آخران أيضاً، هما مدير إدارة البحث الجنائى، و رئيس المباحث الجنائية بالمحافظة، و كانا على صلة طيبة به ..... يأملان هما أيضاً أن تلبى الوزارة رغباتهما فى النقل، خاصة أنهما بذلا خلال عملهما جهداً فائقاً

. خلال هذا التوقيت، يقع حادث خطير ليلاً، كان له صدى كبير لدى الأهالى، واهتمام أكبر من المسئولين بالمركز ومديرية الأمن ... بل والوزارة فى وقت لاحق . فقد قامت عصابة فى التاسع من يوليه باختطاف مزارع يبلغ من العمر الثالثة والستين، أثناء نومه بحديقته ليلاً و قاموا باقتياده و إخفائه بإحدى المغارات المهجورة بالجبل الشرقى، ثم قاموا بعدها بطلب مبلغ من المال من ابن المجنى عليه؛ نظير إرجاع والده .

لم يبلغ أحد من أهل المجنى عليه عن الحادث، لكن هذه المعلومات وصلت إلى علم رئيس مباحث المركز عن طريق أحد أعوانه من المرشدين السريين . لذا فقد غلى الدم فى عروقه فور علمه، ليس لوقوع مثل هذا الحادث الخطير، لكن لشعوره بأن ماحدث هو استهانة به و برجاله، فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً، بأن الإجراءات التى قام بها فى مواجهة مرتكبى الحوادث الإجرامية، فور تسلمه العمل بالمركز سوف تردعهم ... فيكفُّون عن ارتكاب جرائمهم .

لكن الأيام أثبتت أن تلك الإجراءات كانت غير كافية، فهى وإن كانت قد ردعت البعض .. فإن البعض الآخر لم يرتدع، ولا يزال سائراً فى غيه

اهتم رئيس و ضابط مباحث المركز بالحادث، و فوراً قاما بعمل إتصال تليفونى مع زميلهما معاون مباحث المديرية يخبراه بما حدث، وليعرض الأمر على رؤسائهم بالمباحث، و إتفق الجميع على التظاهر بعدم الاهتمام، لأنه لم يصل إليهم علم بالحادث؛ حتى يطمئن مرتكبو الحادث و يتأكدوا من أن أهل المجنى عليه لم يبلغوا الشرطة عنه، بهدف الحفاظ على سلامة المجنى عليه وعودته، مع استمرار البحث و التحرى بصفة سرية .

كما اهتم المأمور و نائبه بالحادث أيضاً، و حثَّا الضابطين على متابعة الحادث بكل جدية، و الموافقة على أن يتم ذلك بصفة سرية، مع إعداد الخطة فى نفس الوقت لضبط مرتكبيه فور عودة المجنى عليه سليماً مُعافاً آملين أن يوفقهما الله، حتى تُختتم أعمال المأمور ونائبه بالمركز بعمل أمنى ناجح . وكذلك كان شعور مدير و رئيس المباحث تجاه الحادث .

إمعاناً فى التمويه، فقد انضم رئيس مباحث المركز وزميله، إلى مجموعة الضباط الذين يتسامرون بالنادى ليلاً، والتى يرأسها المأمور ونائبه و يحضرها مجموعة مدنية من الموظفين من غير أهل البلدة ... وينضم أحيانا لهم بعض أهالى البلدة من ذوى الحيثية فى الجهاز الإدارى أو الشعبى بالمركز حيث يتسامر البعض بالأحاديث، و البعض الآخر بلعب ورق " الكوتشينة " و الشطرنج .

خلال هذه الجلسات أحاط رئيس المباحث وكلاء النيابة بالحادث، وبتحرياته أولاً بأول ... و ما يعلمه عن المفاوضات التى تجرى بين ابن المجنى تليفونيا مع زميلهما معاون مباحث المديرية يخبراه بما حدث، وليعرض الأمر عليه وبعض مرتكبى الحادث، حيث كانت المعلومات تصل إلى رئيس المباحث من أحد مصادره السرية تباعاً بالتليفون .

لم يكتف بهذا التمويه بجلوسه فى حلقات السمر بالنادى ليلاً ... بل كان يتناول الشاى نهاراً بالنادى أيضاً مع بعض صغار الضباط الخالين من الخدمة مما دعا أحد قدامى الشرطة السريين لأن يتحدث مع رئيس المباحث؛ ليخبره بأن حادث الخطف شاع أمره فى بلاد المركز، و أن بعض الأهالى تتساءل :

ـ لماذا لم يتحرك أحد للبحث عن الشخص المختطف حتى الآن؟

ويوجه حديثه بأدب، راجياً من رئيسه التحرك؛ إرضاءً لمشاعر الناس .

يجيبه رئيس المباحث بحدة قائلاً :

ـ تريد منا أن نتعب ونجرى هنا وهناك، ونحرك النيابة، وعندما يعود الشخص المختطف ينكر، و يقول لنا : " كيف يخطفونى يا بك هو أنا صغير؟ " . هل نسيت قضية الخطف السابقة؟ .. قل لمن يحدثك بشأن هذا الحادث أننا لن نتحرك إلاَّ إذا أبلغنا أحد من أهل المجنى عليه بالحادث .. عندئذ يمكن أن نتحرك .

اضطر رئيس المباحث أن يبدى قوله هذا للشرطى السرى، رغم ثقته به، إمعاناً فى السرية و التمويه، خاصة أن له مصدراً يعطيه المعلومات أولاً بأول. بل إن قوله هذا كرره مرة أخرى، عندما همس فى أذنه، عضو مجلس الأمة عن المركز فى ذلك الوقت، و كانت بينهما صداقة و احترام متبادل، همس راجياً منه عدم الظهور مع الضباط فى النادى هذه الأيام، حيث أن الناس تلوم المباحث؛ لعدم اهتمامها بالحادث .

تلك الأيام القليلة، التى أعقبت الحادث، عاشها رئيس المباحث على أعصابه، لم تهدأ نفسيته إلاَّ بعد علمه بأن المجنى عليه قد عاد إلى أهله، بعد أن دفع ابنه المبلغ المطلوب .

على الفور قام رئيس المباحث بعرض محضر تحرياته على النيابة، تضمن محضره ما وصل إلى علمه عن حادث الخطف، و أسماء مرتكبى الحادث، وعودة المجنى عليه، بعد أن تسلم بعضهم المبلغ المتفق عليه "كحلوان" . وأدرج بمحضر تحرياته هذا واقعة تحرير إيصال أمانة بمبلغ مائتى جنيه على
ابن المجنى عليه لصالح شخص آخر، حتى يكون ذلك وسيلة تهديد له؛ كى لا يبلغ الشرطة ... أُثبِتَ كل هذا بمحضر التحريات، وقبل أن تجرى النيابة التحقيق بسؤال المجنى عليه أوالمتهمين .

سألت النيابة ابن المجنى عليه، فى نفس اليوم، فقرر بأنه قبل الحادث بأسبوع تقريباً، حضرت إلى منزلهم بالبلدة، المدعوة "....."

و هى من بلدة بعيدة عن بلدتهم، بحجة أنها كانت بالبندر ــ القريب لمنزل المجنى عليه ــ طرف طبيب الأسنان، و أنها سوف تتردد عليه لخلع أسنانها، و أبدت رغبتها فى الاستراحة طرفهم خلال تلك الفترة، لأنها مسنة، ولا تستطيع الذهاب يومياً من بلدتها إلى الطبيب . وتم الترحيب بها؛ لارتباط العائلة بها بصلة قديمة، حيث كان ابن المجنى عليه مدرساً ببلدتها، وأقام طرفها عدة أيام . ثم أضاف بأن أحد أقاربها حضر إليها أثناء وجودها بالمنزل؛ لزيارتها ـ تبين أنه أحد المتهمين فيما بعد ـ وقد لاحظ من فى البيت بأن السيدة المذكورة وقريبها أخذا يسألان عن الحديقة، من يحرسها؟ من ينام فيها؟ هل طرفهم سلاح نارى؟ من هم جيران الحديقة؟ و هل بها كلاب للحراسة؟

و بعد مغادرتها المنزل بأسبوع، علم من والدته بغياب والده من الحديقة، حيث كان نائماً بها كعادته، وأضاف بأنه وجد نقباً فى سور الحديقة وكسراً به، فتأكد بأن والده قد خُطِف، وقد ساورته الشكوك بالنسبة للسيدة وقريبها بأن لهما صلة بالحادث؛ نظراً للأسئلة التى استعلموا بها عن حال الحديقة . عندئذ توجه إلى منزل تلك السيدة، وأخبرها بما حدث لوالده، وقد حضر ساعة اللقاء قريبها الذى زارها وزوجها، وطلبوا منه عدم إبلاغ الشرطة وأنهم سيقومون بالبحث عنه .

في اليوم التالى توجه إليهم ببلدتهم مرة أخرى، حيث أخبروه بأن والده لازال حياً، و طلب قريب تلك السيدة مبلغ خمسمائة جنيه "كحلوان"، فاعتذر ابن المجنى عليه؛ لعدم مقدرته على دفع هذا المبلغ، ثم إتفق على دفع ثلاثمائة و عشرة جنيهات، على أن يدفع المبلغ مساء نفس اليوم . أسرع ابن المجنى عليه بتنفيذ الاتفاق، و أحضر معه المبلغ المطلوب، إلاَّ أنهم طلبوا منه؛ ضمانا لعدم إبلاغ الشرطة، تحرير إيصال أمانة لصالح شخص آخر - ذكر اسمه بالتحقيق - حيث تم تحرير الإيصال، بعدها قام بتسليم المبلغ للسيدة "......."

و التى قامت بِعَدِّ المبلغ، ثم سلمته لقريبها، و حضر واقعة التسليم زوجها، و هو أحد المتهمين فى الحادث، و قد أخبروا ابن المجنى عليه بأن والده سيُطلَقُ سراحه صباح الغد. وفعلاً أُطلِقَ سراحه.

و اختتم ابن المجنى عليه أقواله بأنه قام بسؤال والده عن خاطفيه، فقرر له بأنهم ستة اشخاص، تعرَّفَ على ثلاثة منهم، و حددهم بالاسم، ونظراً لأن والده كان فى حالة إعياء شديد، فقد أسرع بإدخاله المستشفى الأميرى، و أنه لم يشأ الإبلاغ؛ خشية بطش المتهمين أو أقاربهم .

أسرع المحقق إلى المستشفى؛ لسؤال المجنى عليه، فأيدَّ أقوال ابنه، و أضاف بأن المتهمين - بعد اختطافه - تركوه فى مغارة بالجبل الشرقى، و أنه لم يأكل أو يشرب خلال تلك الأيام الثلاثة، و أضاف أنهم تعدوا عليه بالضرب، عندما حاول مقاومتهم و الاستغاثة، و قد أحدثوا به عدة إصابات .

و قد ساءت حالة المجنى عليه، فأُجريت له عملية جراحية، إلاَّ أنه توفى بعدها، لكن بعد أن أدلى بكل أقواله . و انتدبت النيابة الطبيب الشرعى الذى قرر بأن الوفاة جنائية .

خلال التحقيقات ... نشط رئيس المباحث و زميله، و قاما بالالتفاف حول أماكن إقامة المتهمين، والذين تساقطوا واحداً تلو الآخر فتم ضبط معظمهم فى اليوم الأول، و قد عمد رئيس المباحث عند ضبط أى متهم، أن يفصله عن المتهمين الآخرين، وأن يشرف على تنفيذ ذلك صغار الضباط، الذين رحبوا بمشاركتهم فى هذا العمل .

واجه رئيس المباحث المتهمين ـ كل واحد على انفراد ـ بما لديه من معلومات مفصلة عن عملية الخطف و ما أعقبها، فكان يحصل من كل متهم على اعتراف بالواقعة، رامياً زملاءه بكل التهم . كما تم ضبط إيصال الأمانة، واعترف بحقيقته من حُرِّرَ الإيصال لصالحه .

كان رئيس المباحث يرسل كل متهم يدلى باعترافه أمامه إلى النيابة ـ واحداً تلو الآخر ـ فيؤكد أمامها ما سبق أن ذكره من اعتراف، حيث أمرت بحبسهم وظلوا بالحبس إلى أن صدرت عليهم أحكام رادعة .

لم تكن عملية ضبط المتهمين يسيرة و سهلة، خاصة عند ضبط المتهم الأخير فى الحادث، فقد حدثت بعض الأمور الهامشية، لكنها ظلت محفورة فى ذاكرة رئيس المباحث، فهو يتذكر ذلك اليوم العاصف شديد الحرارة، عند بحثه عن ذلك المتهم

.. فقد تسلق هو و رجاله من الشرطة السريين والجنود الجبل الشرقى، فى الأماكن التى قيل أنه يحتمل أن يكون هارباً بها ... إتجه إلى إحدى المغارات الموجودة بالجبل إنه لم يسبق له دخول إحداها، تشجع بدخولها هو و رجاله ... لعله يجد بها بعض رجال العصابات، أو المتهم الذى يبحث عنه .. اعتقد أن المغارة ستكون بحجم حجرة .. حجرتين .. أو أكثر، هكذا تصور ... أمسك مسدسه بيده ... إنه فى حالة استعداد ... تقدم القوات ... على ضوء شمس النهار، و ضوء كشاف بطارية بيد أحد المخبرين، سار و من خلفه قواته ... سار عدة خطوات فقط ... بعدها لم يعد لضوء النهار أى تأثير، فسار على ضوء الكشاف فقط .. خطوات أخرى سارها .. فوجد الظلمة تشتد، و أصبح ضوء الكشاف خافتاً ... لا يكشف بوضوح، و أصبح صوت الخفافيش المزعجة يملأ طريق المغارة ... بالإضافة لأصوات البوم وطيور أخرى لم يتبين نوعها تطير ذهاباً و إياباً ... قد يوجد بالمغارة زواحف و عقارب لم يشاهدها و لكنه يخشى مجرد احتمال وجودها ... و لا يعثر على المتهم المطلوب ضبطه فى هذه المغارة، كما لم تعثر القوات على أى أثر يفيد بأن المتهم كان بها أو أى إنسان آخر، فلا آثار لأقدام على الأرض أو آثار لمخلفاتهم .

وتعود القوات أدراجها ... إلى خارج المغارة ... حيث الشمس والحياة و الأمان؛ لتبحث القوات فى أماكن أخرى بالجبل الشرقى عن المتهم الهارب و رغم هذا الجو الخانق، و الذى جعل العرق يتصبب من الجميع فقد استمر رئيس المباحث فى مأموريته، تحت وهج الشمس، حيث أحس أن جسمه لم يعد يحتوى على ماء ... تحسس ذراعيه فوجد جلده أصبح جافاً ... وازداد خشونة ...

لم يعد يستطيع بلع لعابه فقد جف حلقه أيضاً ... يتمنى أن يحصل على جرعة ماء ... يفكر فـى أنه لو رأى ترعة مياهها راكدة، فلن يخجل من أن يرتمى عليها و يشرب منها بيده يسأل أحد أعوانه من المخبرين عن أقرب مكان يمكن لهم أن يشربوا منه ... يدله على منزل أحد الأعراب بجوار الجبل ... يسرعون إليه ... يطلبون منه مياهاً للشرب ... لكن الرجل المسن صاحب الدار ينصحهم بألا يفعلوا ذلك ... و أن يشربوا الشـاى أولاً ... يُصِرُّ رئيس المباحث على شرب المياه فقط ... فيبتسم الرجل قائلاً :

ـ إنه شاى مخصوص لمثل تلك الحالات ... تفضل .

و يدخل الضابط و الجنود يستظلون من حرارة الشمس ... دقائق قليلة ... ثم يُقَدَّمُ الشاى فى أكواب صغيرة ... كان لون الشاى قاتماً، لكن بعد شرب كوب واحد ... يشعر رئيس المباحث بأن العطش قد زال .. ثم قدموا له كوباً ثانياً ... بعدها قدموا له الماء ... و هكذا فعلوا مع بقية الجنود .

يشكره رئيس المباحث كثيراً على ضيافته .. و يتابعون السير .. يتوجهون إلى سياراتهم للعودة إلى ديوان المركز؛ ليستريح الجنود ويتناولوا الطعام .

يسرع رئيس المباحث هرباً من هذا الحر الشديد، إلى شقته، يجد أن هناك فرقاً كبيراً بين درجة الحرارة داخل الشقة وخارجها..لم يتناول طعامه المغطى، والموجود على المنضدة، توجه مباشرة إلى حجرة نومه، خلع حذاءه الخفيف الرياضى، و الذى يفضله عند الخروج إلى مثل تلك المأموريات بالجبل ... شعر بسعادة و هو حافى القدمين حيث أن بلاط الحجرة بارد ... ولا توجد سجادة بها ... ألقى بجسده على سريره الصغير ترك رجله اليسرى مدلاة لتلمس قدمه الأرض لتبرد ... سوف يستريح قليلاً

ثم يعاود البحث عن المتهم ... أثناء ذلك ... سمع صوتاً بالحجرة، يشبه دقات منبه قديم ... " تك .. تك .. تك " ... الصوت مصدره يقترب ... " تك .. تك .. تك " ... قام يستطلع الأمر ... فزع، فقد شاهد عقرباً كبيراً ... رافعاً زنده، و متجهاً إلى ناحية موضع قدمه اليسرى، التى كانت مدلاة على الأرض .. ابتعد على الفور.. أمسك بحذاء، نعله صلب.. وانهال عليه.. فقتله.

ابتسم و هو يقول ساخراً :

ـ خشينا أن تلدغنا الزواحف أوالعقارب بالمغارة ... فأتت إلينا بالمنزل! .

ثم يضع العقرب فى علبة؛ ليحتفظ به كتذكار .

و يدق جرس التليفون بالمنزل، و يهنئونه؛ لأن اثنين من عمال التنفيذ قاما بضبط المتهم الهارب، و هو يعبر منفذاً بحرياً بالنيل؛ للانتقال إلى أحد المراكز الأخرى المواجهة .

أسرع رئيس المباحث بالذهاب إلى مكتبه؛ ليحرر محضراً بذلك ... يثبت فيه اعترافات المتهم التفصيلية، و المبلغ الذى تقاضاه ... ثم يرسله مع المتهم إلى النيابة .

يحدثه زميله ضابط المباحث ـ و هما بالمكتب ـ قائلاً :

ـ أراك قد تحمست فى هذه القضية عن أي قضايا أخرى .

ـ طبعاً ... فقد أردت أن آخذ بثأرى ... لقد شعرت بأن المتهمين فى هذا الحادث، قد استهانوا بنا .

يبتسم زميله و هو يقول له :

ـ الثأر؟؟ ... لقد أصبحت تتحدث كأهل هذه البلاد .

و يبتسمان معاً .

(١٨) دَعُوهُ لحَالِه!

مع قرب صدور حركة التنقلات، نشطت أجهزة البحث الجنائى بمديرية الأمن، فى متابعتها لعملية ضبط المحكوم عليهم الهاربين، فى كافة أرجاء المحافظة، فكلفت جميع المراكز والأقسام بعمل حملات تفتيشية مكبرة، أما بالنسبة لمركزنا هذا، فإن التكليف زاد عليه أمر إضافى، و هو قيام أحد مساعدى مدير الأمن، برئاسة حملة خاصة؛ لضبط أحد المحكوم عليهم الهاربين والصادر ضده عدة أحكام غيابية، بلغ مجموع سنوات تلك الأحكام ستون عاماً، ما بين الأشغال الشاقة والسجن ... وسيشارك فى هذه الحملة رئيس مباحث المديرية و بعض معاونيه من ضباط المباحث، و معهم تجهيزات ومعدات لمثل هذه الحملة، فضلاً عن مشاركة ضباط و قوات المركز .

والاهتمام لضبط هذا المحكوم عليه الهارب، يرجع إلى أن بعض الأحكام الصادرة ضده تكاد تسقط . و هذا المحكوم عليه يحتمى دائماً بالجبل الشرقى المتاخم لمسكنه، حيث يفر هارباً إلى قمة الجبل فور شعوره بقدوم القوات لضبطه . و يسهل له عملية هروبه أن كثيراً من الأهالى تبلغه فى الحال بقدوم القوات، خاصةً أن هذه القوات لاتستطيع أن تصل إلى مسكنه بالسيارات "اللورى" أو غيرها؛ لضيق شوارع وأزقة القرية فتتركها بالخارج، بينما يهرول الجنود والضباط تجاه منزل المتهم ... وهنا تكون الفرصة لإبلاغ المحكوم عليه بقدومهم ... فيسرع المحكوم عليه خلالها بامتطاء قمة الجبل أو الاختباء فى مكان ما.

و قد توجهت ـ فيما مضى ـ عدة حملات تفتيشية؛ لضبطه ... سواء بقوات من المركز فقط، أو بقوات مشتركة من المديرية والمركز معاً كما هو حادث فى هذه الحملة . لكن تلك الحملات جميعها باءت بالفشل، و لم تتمكن من ضبط المحكوم عليه .

لكن هذه المرة، فإن الخطة الجديدة التى وُضِعت بسرية شديدة، والتى أعدتها إدارة البحث الجنائى بمديرية الأمن، تختلف عن سابقتها . فقد توجه سراً فى الليلة السابقة بعض الأفراد من قوات الشرطة، ومنهم من يعرف دروب الصحراء و المنطقة، حيث باتوا ليلتهم فوق قمة الجبل انتظاراً لفرار المحكوم عليه الهارب و إتجاهه إليهم، عند شعوره بقدوم قوات الحملة فى الفجر ... عندئذ سوف يتمكن الكمين من محاصرته وضبطه .

هكذا كانت الخطة، لذا فلم يكن فى دائرة اهتمام قيادة الحملة، الإزعاج و الجلبة، التى تحدثها السيارة المصفحة، و التى تسير عجلاتها بجنزير، فتحدث دوياً شديداً عند سيرها، بل لعل من أهداف مشاركتها إحداث هذا الدوى . و قد تحقق هذا الهدف فعلاً، حيث استيقظ الأهالى من نومهم، على صوت تلك السيارة المصفحة، و هى قادمة إلى قريتهم من بعيد، فخرجوا من منازلهم يستطلعون الأمر، ويشاهدون القوات و هى تهرول تجاه بيت المحكوم عليه الهارب ... ولكن ككل مرة ـ كان هناك من الأهالى من هو أسرع من تلك القوات ليبلغ المحكوم عليه بقدوم الحملة .

استرعى انتباه رئيس مباحث المركز و هو يهرول مع القوات، مافى نظرات بعض الواقفين من الأهالى، بعضهم كانت تحمل نظراته تعبيرات التعجب! ...

والبعض الآخر كانت نظراته تعبر عن الاستنكار لما يحدث بل إن إحدى النسوة المسنات كانت لديها الشجاعة، فتجاوزت مرحلة التعبير بالنظرات إلى مرحلة التعبير باللسان، فقد سمعها و هى تقول بصوت مرتفع، متعجبة لما يجرى أمامها، قالت :

ـ ما الخبر يا حكومة؟ ... ما الذى فعله الرجل خلاف أنه أخذ بثأره؟ اتركوه فى حاله! .

ومع هذه الاستعدادات، فإن الحملة أخفقت فى تحقيق هدفها؛ لضبط المحكوم عليه الهارب . وقد قيل بعدها أنه لم يتجه إلى قمة الجبل مثلما كان يفعل فى كل مرة، بل إتجه إلى ناحية الصحراء الواسعة، حيث دفن نفسه فى رمالها . و قال آخرون أنه لم يكن موجوداً ليلتها بالبلدة .

و تعود القوات إلى قواعدها سالمة ... لكن كلمات السيدة المسنة تظل تطن فى أذنى رئيس مباحث المركز، و من تلك الكلمات يتعلم الشىء الكثير .... يتعلم بأن عملية الثأر هى فى يقين و اعتقاد أهل تلك البلاد شىء مشروع ولا يمثل جريمة ! .

و يدعم ذلك موقف الأهالى، و هى تساعد و تعاون هذا المحكوم عليه الهارب ... فهى تساعده فى الهرب من الحكومة فى كل مرة، خاصة بعد أن تصالحت عائلته مع العائلة الأخرى، التى كانت فى خصومة ثأرية معها، بعد أن تساوت رؤوس القتلى بينهما من زمن بعيد فهذا الموقف يستحق الدراسة
حقيقة، فالأهالى لم تتعاطف معه إلاَّ لإحساسها بأنه لم يرتكب جريمة فى عرفهم إن ما فعله هو ما يقتضيه الواجب تجاه أسرته.

و يحكى رئيس المباحث خواطره هذه لزميله ضابط المباحث، وهما يركبان السيارة سوياً، عائدين من الحملة، فيعلق على خواطره بقوله :

ـ إن الأهالى فى هذه البلاد، معذورون، و معهم حق . فهل درسنا فى المدرسة، فى السنوات المختلفة، مايفيد من قريب أو من بعيد عن الثأر وآثاره؟ أو ما يفيد أن ارتكابه جريمة وحرام؟ لقد خلت مناهج الدراسة من أى شىء ينهى عنه، فما بال ابن القرية هنا، و هو ينشأ فى جو، يُنظر فيه إلى الشخص الذى يأخذ بثأره، بنظرة كلها اعتزاز وافتخار، بينما يُنظر لمن يتقاعس عن أخذ ثأره .. نظرة كلها عار واحتقار .

و يهز رئيس المباحث رأسه عدة مرات علامة الموافقة على رأيه .

(١٩) الحس الوطنى

تستمر جلسات السمر بالنادى ليلاً ... و تتسع الدائرة يوماً بعد يوم؛ لتوديع المأمور و نائبه، بمشاركة بعض الأهالى الذين يستجِدُّون على تلك الجلسات؛ ليعبروا عن مشاعرهم الطيبة نحوهما، كنوع من الوفاء و التقدير . حقاً إنه شعور جميل، وإحساس نبيل، خاصة وأن الكل يعلم أنه لم يتبق على نقلهما خارج المحافظة إلاَّ أيام فقط تعد على أصابع اليد الواحدة .

وتصدر الحركة، وفيها تُعلن أسماء من سيشغلون المناصب التى خلت. وتنقلب جلسات السمر بين الضباط، إلى مباراة فى المعلومات عن القادمين الجدد، كُلٌ يدلى بمعلوماته عن أيهم إن كان قد سبق له الخدمة فى موقع ما معه، فإذا ما عُرِفَ أن أحدهم قد عمل مع أحد هؤلاء القادمين، فعلى الفور تُوَجّهُ له الأسئلة، حول أسلوب عمله، وطباعه، بل و حياته الاجتماعية، فلا يمضى وقت طويل إلاَّ و تكون دائرة معارف كاملة قد أُعِدّت عن هؤلاء القادمين، و قبل أن تطأ أقدامهم أرض المحافظة! .

و يقام حفل توديع المأمور و نائبه، بإلقاء الخطب، و تقديم الهدايا الرمزية و أخذ الصور التذكارية ... بعدها يتم التنفيذ للنقل مباشرة .

ثم يأتى المأمور الجديد و نائبه، و يشغلان موقعيهما، و كذلك يتسلم مدير و رئيس المباحث منصبيهما ... ثم تتوافد الوفود للتهنئة بمكاتبهم ... بعدها يتم تبادل الزيارات بين قيادات الأجهزة الإدارية بالبلدة كتقاليد راسخة.

و مع تغير وجوه القيادات ... تتغير أيضاً أساليب العمل ... والتى كثيراً ـ فى البداية ـ ما تُحدِث اختلافاً فى وجهات النظر بين العاملين، لكن سرعان ما تتوحد الأساليب و وجهات النظر؛ وفقاً لماتريده القيادات .

و تمر الأيام هادئة، لا يغير صفوها شىء، و كل فرد منهمك فى العمل، يبذل أقصى جهده؛ لترضى عنه القيادة الجديدة . ويأتى يوم الثامن و العشرين من سبتمبر عام ألف و تسعمائة وسبعين ... و تتوقف الإذاعة و التليفزيون عن بث الأغانى، فلا يُذاع إلاَّ آيات من الذكر الحكيم ... بعدها يعلن أنور السادات نائب رئيس الجمهورية بصوته المميز عن فقد مصر أغلى الرجال ... و أعز الرجال . و يعلن نبأ وفاة الرئيس جمال عبد الناصر .

مع مشاعر الحزن ... يسرع رئيس مباحث المركز بجمع قواته من الشرطة السريين، ومندوبى تنفيذ الأحكام بمكتبه ... ليعطيهم التعليمات المناسبة لهذا الموقف، و أن يكونوا على أهبة الاستعداد و اليقظة . يكتشف أن أحد رجال الشرطة السريين، وهو من بلدة بنى مر ... مسقط رأس الزعيم انهار و بكى، وأسرع فوراً بالسفر إلى القاهرة ليلحق بتأدية واجب العزاء بالمشاركة فى تشييع الجنازة، حيث ظن أنها ستقام فى اليوم التالى، تاركاً رسالة مع زميله لتقديم أجازة له! .

لعل ماحدث مع الشرطى السرى، حدث فى مواقع أخرى ... فالكثير من الهيئات والتنظيمات طلبت السفر والمشاركة فى تشييع الجنازة ...

و لعل ذلك كان السبب فى صدور تعليمات من القاهرة تلزم كل رئاسة مركز تنظيم جنازة رمزية، يحمل فيها المواطنون نعشاً خالياً، يثبت عليه صورة كبيرة للزعيم الراحل، و يسير خلفه بقية المشيعين، وأن يكون ذلك فى نفس التوقيت الذى سيتم فيه تشييع الجنازة الرسمية؛ بقصد أن يحول ذلك تدفق الملايين للقاهرة .

و ينفذ ذلك بالمركز، فى الوقت المحدد، و يتقدم رئيس مجلس المدينة المشيعين الذين يمثلون جميع الهيئات و الجهات الإدارية بدائرة المركز، و ينوب عن شرطة المركز فى الجنازة رئيس المباحث، الذى يسير فى الجنازة أول الأمر غير مقتنع بأن يشيع نعشاً خالياً ... ولم يتقدم غير بضع خطوات قليلة، حتى يشعر بأنه يسير فى جنازة حقيقية، فمن خلف النوافذ المغلقة يرتفع صِوات وولولة النسوة، و ما أن يقترب النعش الخالى من أى منزل، إلاَّ و يعلو النحيب و الصراخ ... لعل رؤية النعش تذكرهم بفراق عزيز أو حبيب لديهم و يحدث هذا عندما تمر الجنازة أمام كل بيوت البلدة، بمختلف مستوياتها، ومختلف طبقات ساكنيها.

تأثر رئيس المباحث بفراق عبد الناصر ... فهو من الجيل الذى كان يرى فى عبد الناصر أنه الأمل فى كل شىء ... حتى أنه حين طلب التنحى بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ ... أسرع كل الناس البسطاء بقولهم بعفوية " لا .. لا .. لا تتنحى ". لأنه لا يزال بالنسبة لهم يمثل الأمل . وهو القادر على دحر العدوان الإسرائيلى

.... و تمضى الأيام ... وتتغلب الأمة على أحزانها . ويتقرر إجراء الاستفتاء الشعبى على اختيار أنور السادات؛ ليكون رئيساً للجمهورية ... ويخشى رئيس مباحث المركز من هذا اليوم ... فهو يخشى التجمعات عند إدلاء الناخبين بأصواتهم فى دوائر الانتخابات، نظراً لوجود الخصومات الثأرية بين بعض العائلات ... لكن تمر عملية الاستفتاء، و لا يحدث فيها شىء يعكر الأمن العام ... و يفوز السادات ... و مرة تالية يوجه رسالة للأمة عبر الإذاعة و التليفزيون بصوته المميز، يشكر الذين قالوا : نعم ... و الذين قالوا : لا! .

والأمر الذى استرعى انتباه رئيس مباحث المركز ... أن الحس الوطنى العام للأهالى، خلال تلك الأيام العصيبة، فاق أى دوافع أخرى للانتقام أخذاً بالثأر ... فلم تقع أية حادثة من هذا النوع خلال تلك الفترة ! .

(٢٠) السجن مكانى الآمن

اغتنم رئيس مباحث المركز، فرصة الهدوء النسبى، التى سادت البلاد، فتابع أعمال تنفيذ الأحكام، و المتخلفين عن التجنيد ... شجعه على ذلك ماأعلنه مدير الأمن فى اجتماعه الأخير بالمأمورين، بأن نقطة شرطة بدائرة المركز، قد فازت على جميع نقط الشرطة بالمحافظة فى تنفيذ الأحكام، و كان ترتيبها الأول، و قد أثنى مدير الأمن على الضابط رئيس النقطة فى الاجتماع ثم سلمه ـ فيما بعد ـ جائزة رمزية تقديراً لجهوده، وهو الأمر الذى أسعد رئيس المباحث وزميله، فإن هذا التفوق تم بمشاركة مندوبى تنفيذ الأحكام، وهو ما يبشر بتقدم ترتيب المركز أيضاً .

كان رئيس المباحث يهتم فى متابعته ـ بصفة خاصة ـ لحالات المحكوم عليهم الهاربين فى جنايات، ممن أثبت بملفاتهم، أنهم يقيمون حالياً خارج حدود الدولة . و قد أسفرت متابعته على أن المحكوم عليه " ..... " فى الجناية " ..... " عام ١٩٦٧ قتل عمد . و الذى صدرضده حكم بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً غيابياً، أنه ليس بخارج القطر، بل يقيم بالقاهرة، وهو عكس ما أثبت بملفه من أنه هارب خارج حدود الدولة، و هو ماأُثبِتَ أيضاً بملفه بمديرية الأمن .

لكن التحريات لم تتوصل إلى معرفة محل إقامته على وجه التحديد، فالذى أمكن التوصل إليه فقط أنه يتردد على بعض أسواق الجملة بالقاهرة؛ للعمل حمَّالاً بها. وقد أمكن التوصل إلى تلك المعلومات عن طريق أحد المرشدين السريين، والذى لايرتبط بخصومة ثأرية مع المحكوم عليه .

كانت فرصة طيبة لرئيس مباحث المركز، لأن يبرز جهده أمام الرؤساء الجدد، خاصة مدير و رئيس المباحث، فأسرع إليهما، عارضاً ما توصلت إليه تحرياته، و لموافقتهما على قيامه بمأمورية، مصطحباً معه أحد الشرطة السريين بالإضافة إلى المواطن الذى سيرشدهما بصفة سرية على مكان المحكوم عليه الهارب .

لم يُبدِ مدير المباحث اهتماماً بالأمر؛ لعدم تحديد محل إقامة المحكوم عليه الهارب، بعكس رئيس مباحث المديرية الذى رحب بقيام المأمورية و تحمس لها و قام بنفسه بمتابعة توقيع كبار المسئولين بما يفيد موافقتهم على قيام المأمورية، و تمنى لرئيس مباحث المركز التوفيق .

تصل المأمورية بالقطار إلى القاهرة، فى السادسة صباحاً، ويتوجه رئيس مباحث المركز، و برفقته كل من المخبر والمرشد السرى، حيث قادهما الأخير إلى حى شعبى، مخترقين بعض الحوارى و الأزقة، إلى أن دعاهما للجلوس بداخل مقهى صغير . و قد تبين أن المرشد السرى على صلة طيبة بأهل المنطقة، فكل من كان يقابله يحييه بتحية الصباح وعلى وجهه البشاشة .

طلب شاياً ... أسرع ثلاثتهم باحتسائه، لعل سخونته تخفف قليلاً من إحساسهم بهذا البرد القارص .

لم ينس المرشد السرى، و هو يُعَرِّفهما بعامل المقهى بأن يخبره بأن الاثنين من أقاربه فلا يصح أن يحاسبهما على أية مشروبات يطلبانها أثناء غيابه،

لأنهما ضيفان عليه . ثم يستأذن منهما للانصراف؛ لكى يكلف بعض أقاربه لمعاونته فى البحث عن المحكوم عليه، فى الأماكن المحتمل وجوده بها أثناء عمله فى حمل بضائع من سيارات النقل إلى المحلات، و ذلك فى الأسواق التى سبق أن شوهد بها .

و قبل انصراف المرشد السرى يؤكد عليهما بضرورة سرعة الانتقال الفورى عند طلبهما، حيث أن عملية تحميل البضائع لاتستغرق زمناً طويلاً .

يدعو رئيس المباحث - فى سره - بأن يوفقهم الله فى مأموريتهم، ويتمكنون من ضبط المحكوم عليه؛ حتى لا يسوء موقفه أمام مدير المباحث، فيلومه بتعجله فى القيام بالمأمورية دون استكمال التحريات .

مرات عديدة، يطلع فيها رئيس المباحث على الوقت، من الساعة الملتفة حول معصمه، دلالة على أن القلق أصبح يساوره ... ثم يقطع الوقت بقراءة المكاتبات المُسلّمة إليه، و التى يلزم تقديمها للقسم الموجود بزمامه المحكوم عليه لكى يقدموا المساعدة اللازمة لضبطه .

ثم تارة أخرى فى محاولة منه لقطع الوقت، ينظر من خلف زجاج نافذة المقهى؛ ليشاهد عربات جمع القمامة الخشبية، التى تجرها الحمير و هى تسير فى طابور أمام المقهى، محملة بالقمامة؛ لتفرغها فى أرض فضاء مجاورة للمقهى، فتنبعث منها روائح كريهة، لكن الجالسين بالمقهى لا يأبهون لذلك!.

فهاهم يشربون الشاى بتلذذ ... و بعضهم من يتناول بشهية مفتوحة إفطاره .. ثم يتبين لرئيس المباحث أن معظم رواد المقهى من عاملى جمع القمامة .

جذب انتباهه، و هو ينظر من نافذة المقهى، مجموعة من الصبيان تقوم بهمة ونشاط، بفرز القمامة، وقد عملوا عدة أكوام بعد فرزهم، كوم للصفيح ... وكوم آخر للزجاج المكسور والزجاجات الفارغة ... و كوم ثالث للورق و الكرتون ... و رابع للبلاستيك ... و خامس لقطع الأخشاب الصغيرة ... كما شاهد عدداً من الخنازير يقدر عددهم بعشرة ... يأكلون بعض مخلفات القمامة الأخرى، و التى لم تُجَنَّب فى أكوام .

و يبتسم رئيس المباحث فى سخرية، و هو يحدث نفسه، عن مهنته التى تقتضى منه أن يجلس هكذا فى هذا الصباح الباكر؛ ليشم تلك الروائح المنبعثة من القمامة! .

يساور القلق رئيس المباحث مرة اخرى ... يعرض عليه عامل المقهى، إحضار مشروبات أخرى لهما ... فيعتذر له شاكراً ... و قُرب الظهيرة تقف سيارة أجرة أمام المقهى مباشرة .. ينزل منها شخص يرتدى الملابس البلدية ... يتفحص رواد المقهى ... ثم يتجه إلى رئيس مباحث المركز مباشرة، يهمس فى أذنه قائلاً :

ــ لقد وجدنا العين ... اتفضل معى بسرعة .

و بنفس السيارة الأجرة، تحركت تلك المجموعة إلى حيث يوجد المرشد السرى، و المحكوم عليه الهارب ... قرأ رئيس المباحث الفاتحة فى سره ...

ثـم أخذ يفكر فى تعليمات المأمورية، و هو الأمر الذى فكر فيه أيضاً و هو جالس بالمقهى ... فالتعليمات تقضى بأن يتوجه للقسم التابع له مكان وجود المحكوم عليه؛ ليساعدوه فى ضبطه، وحتى لا يقع ما لا تُحمد عُقباه، إذا قاوم هذا المحكوم عليه، أو ساعده بعض الأهالى من أقاربه؛ ليمكنوه من الهرب . لكن فى حالة توجهه للقسم، فربما يكون المحكوم عليه قد أنهى عمله فى موقعه وغادره، فلايتمكن المرشد السرى من متابعته؛ لأنه ليس له محل ثابت للإقامة أو العمل .

و ما العمل إذن؟

فليتوكل على الله و يتجه بدون تردد إلى حيث يوجد المحكوم عليه .

تقترب السيارة من سوق روض الفرج، من الخارج، يطلب رسول المرشد السرى إيقاف السيارة ... بينما يعلن رئيس المباحث شخصيته للسائق؛ طالباً منه متابعتهم بنظره، و اللحاق بهم فور ضبطهم لشخص هارب... ينزلون من السيارة .. يترجلون .. يتجهون إلى حيث يقف المرشد السرى مستتراً خلف شجرة ... فى حديث خاطف معه، يحدد لرئيس المباحث مكان المحكوم عليه، و يشير إليه بإصبعه .

يتأمله رئيس المباحث ... ماهذا؟ ... إن المحكوم عليه طويل القامة عريض المنكبين .. ضخم الجثة، و مفتول العضلات ..

وفضلاً عن ذلك، فهو يمسك بيده اليمنى بمخطاف، بسن مدبب، يغرزه فى جوال القمح الموجود أعلى السيارة النقل ليساعده فى حمله، وإيداعه بداخل المحل ... يحدث نفسه ثوان قليلة بأنه لو كان قد شاهد هذا المحكوم عليه من قبل، لكان قد توجه للقسم لطلب المساعدة أولاً.. ولكن ماحدث قد حدث.. فليتوكل على الله..

و يُخرِج رئيس المباحث مسدسه الأميرى، و يمسكه فى يده ... ويوجهه لناحية المحكوم عليه، بينما ينبهه إلى أنهما من المباحث، حتى لا يظن أنهما من خصومه، قائلا بصوت مرتفع :

ـ مباحث ... مكانك و لا حركة .

بعدها مباشرة، كان المخبر قافزاً إلى أعلى؛ ليمسك بيد المحكوم عليه اليمنى أثناء غرزه المخطاف بجوال القمح، وينتزع منه المخطاف، ثم تأتى على الفور السيارة الأجرة ... فيركب الجميع، و يجلس المحكوم عليه بجوار رئيس المباحث، الذى أنذره بأن أية محاولة للهرب، فسوف يطلق عليه النار فوراً ... فيهز المحكوم عليه رأسه قائلاً :

ـ يا بك ... أنا طول عمرى ... ماشى صح ... ولا توجد عندى أية سوابق .. و لم أدخل فى حياتى أى قسم للشرطة ... لكنه قدرى ..لأن يُكتب علىَّ أن آخذ بثأرى ... لم أشعر بالأمان طوال الفترة السابقة كنت أخشى خصومى أن تقتلنى ... وأخشى الحكومة أن تقبض علىَّ ... الآن فى السجن أستطيع أن أستريح ... آكل و أنام .

و تصل السيارة إلى القسم المختص ... حيث يتم إيداعه؛ تمهيداً لترحيله .

(٢١) و لم ترحم طفولته

مع بدايات العام الجديد، و تحديداً فى الخامس من يناير ١٩٧١، بينما أقباط مصر يستعدون لاحتفالهم بعيد الميلاد المجيد، إذ برجل رقيق الحال، يطلب دخول مكتب رئيس مباحث المركز، فيؤذن له، كان على وجه الرجل علامات الهلع و الحزن الشديد ...

لقد حضر ليبلغ عن فقد ابنه . يطمئنه رئيس المباحث، ويطيب خاطره بعدة كلمات، لعله يهدأ قليلاً و يخفف من جزعه .

إنه يعرفه حق المعرفة، فهو تاجر الملوحة، الذى يجلس بصفائحه المملوءة بالسردين و الملوحة على الرصيف أسفل المنزل الذى يسكن فيه و كان هذا الرجل ما إن يشاهد رئيس المباحث، فى غدوه و رواحه، إلاَّ و يهب واقفاً ليحييه، فيرد رئيس المباحث على تحيته بابتسامة خفيفة يوجهها إليه ... حيث يستشعر بأن تحية هذا الرجل له نابعة من القلب وصادقة .

يدعوه رئيس المباحث للجلوس، يستمع إليه، فيخبره الرجل بأنه عند عودته لبيته ظهراً، اكتشف عدم وجود ابنه ... سأل أمه عنه، فأجابته بأنه توجه إليه بمكان وجوده بالسوق ... عندئذ ظن أن ابنه ربما يكون قد ضل الطريق، فخرج ليبحث عنه هو وزوجته، ويسألان كل من يقابلهما عن ابنهما . إلى أن أخبرهما أحدهم بأنه شاهد الطفل، وهو يسير مع السيدة "..... "، والتى تقطن معهم فى منزل مشترك، يفصل بينهما حائط،

وكانت هذه السيدة تمسك بيد الطفل أثناء سيرهما . أسرع والد الطفل يسألها عنه ... فأجابته بأنها لم تشاهده و أنكرت خروجها اليوم من بيتها. ثم أوضح المُبَلِّغ بأنه نظراً لوجود خلافات بين عائلته وهذه المرأة ... فقد حضر للإبلاغ خشية أن تحدث المرأة مكروهاً لابنه .

ويعتدل رئيس المباحث في جلسته ويبدو على وجهه الاهتمام، موجهاً عدة اسئلة شفاهة للمُبَلِّغ ليستوضح بعض الأمور التى لم يذكرها المُبَلِّغ، سأله :

ـ ما عمر ابنك؟

ـ ست سنوات .

ـ و هل أنت متأكد من صدق رواية الشاهد؟

ـ طبعاً يا بك .. هو معروف عنه الصدق .. و هو قريب لى ولتلك المرأة .

ـ إذن فهى قريبة لك أيضاً.

ـ نعم .

ـ و ما صلة القرابة بينكما؟

ـ زوجها شقيق زوجتى، و هو موجود بالسجن حالياً.

ـ و ما هى الخلافات التى ذكرتها؟

ـ منذ فترة حدث حريق كبير بالقرية احترقت فيه عدة بيوت للمسيحيين ومنهم بيتى، و بيت تلك المرأة، و مات فى الحريق ابنها و بنتها، و هى تعتقد أننا كنا نوقد الفرن، و تسببنا فى الحريق، فكانت تسبنا ليلاً و نهاراً وتتهمنا بأننا السبب فى موت ولديها .

ـ و هل تشتبه فى غياب ابنك جنائياً؟
ـ طبعاً يا بك .
يزداد رئيس المباحث اهتماماً بالبلاغ، فيكلف زميله ضابط المباحث وبعض الشرطة السريين بعمل تحريات سريعة عن الحادث، خاصة فى المنطقة التى قيل بأن المرأة كانت تسير فيها هى والطفل، وفقاً لرواية الشاهد، والبحث عن شهود آخرين أيضاً، مع سرعة استدعاء الشاهد و تلك المرأة . ويعيد سؤال المُبَلِّغ تفصيلاً فى محضر، أثبت فيه بلاغه، و ذاكراً أوصاف الطفل، و ملابسه، و العلامات المميزة به .
و يحضر الشاهد، فيسأله رئيس المباحث عن معلوماته، فيدلى بمثل ما قرره المُبَلِّغ، و لكن بتفصيلات أكثر عن واقعة مشاهدته للسيدة "....."، و هى تمسك بيد الطفل، و الذى كان يسير معها سيراً طبيعياً، متجهان إلى ناحية غرب البلدة . و لم يلفت نظره سيرهما سوياً إلى أى شىء يخشى منه . و عندما سمع صراخ أم الطفل، و هى تنادى على ابنها، و تصرخ، ومعها زوجها، أخبرهما بما شاهده ... و قد وصف الشاهد أوصاف ملابس الطفل، بالأوصاف التى ذكرها والده .
رجع رئيس المباحث إلى المعلومات المسجلة بشأن الحريق، الذى أُشيرَ إليه فى أقوال المُبَلِّغ، فتبين أنه قُيِّدَ جنحة حريق بإهمال ضد والدة الطفل، حيث كانت تقوم وقت الحريق بإعداد فطائر، فامتدت النار من الفرن إلى المنزل، ثم إلى المنازل المجاورة، و منهم منزل "....." . وأنه قد نتج عن هذا الحريق خسائر مادية، و خسائر فى الأرواح، حيث توفى محترقاً ابن صغير، و ابنة صغيرة للمُبَلَّغ ضدها "....." .

دلت التحريات السريعة، التى وصلت إلى رئيس المباحث، على أنه منذ وقوع الحريق، فإن الشجار كان يدب بين الأسرتين، و قد كان قلب "....." يمتلىء حقداً، و هى ترى الطفل ابن المرأة التى تسببت فى إحداث الحريق، وهو يلعب أمام منزلها، حيث يسكنان متجاوران .

عندئذ تتذكر ابنها و ابنتها اللذين توفيا محترقين ... فتفكر فى الانتقام بقتل ذلك الطفل؛ لتفجع أمه و أبيه ... خاصة أنه وحيد والديه! . بل كثيراً ماكان شعورها الباطن، يظهر علناً، فى السباب الذى كانت توجهه لهما، وقد هددتهما بالانتقام أكثر من مرة.

ومع هذه المعلومات التى وصلت إليه ... فإن رئيس المباحث كان متفائلاً و آملاً فى العثور على الطفل المُبَلَّغ بفقده، فمع تصديقه لرواية الشاهد، فربما تكون قد أخذته بعيداً، ثم تركته ليضل طريقه، و يبتعد عن أمه و أبيه بعض الوقت، لتحرق قلبيهما ... أو ربما حبسته فى مكان ما ... كان رئيس المباحث يستبعد فكرة الانتقام من طفل؛ لبشاعتها ... و يستبعد فكرة الأخذ بالثأر؛ لأن العرف الموجود بالصعيد ألاَّ يؤخذ الثأر من طفل أو طفلة! ....

و تحضر المرأة المُبَلَّغ ضدها إلى المركز، وتقف أمام رئيس المباحث، يواجهها بالمعلومات التى لديه، و برواية الشاهد .. فتنكر خروجها من بيتها، ولكنها تنهار وتعترف أمام أقوال الشهود الآخرين الذين ـ شاء حظهاالأسود ـ أن يشاهدوها و هى تسير ممسكة بيد الطفل ...

تبكى و تعترف بأنها لم تتمالك شعورها لاقتراب يوم العيد، وليس معها ولداها، فقامت باصطحاب الطفل بنية قتله، أو بإغراقه، و ألقته فى بئر ساقية بالزراعات المجاورة لمسكنهم غرب البلدة ..حيث مات غريقاً .. و قد تم العثور على الجثة فى المكان الذى أشارت إليه المرأة.

تطلب المرأة الصفح؛ لأن زوجها بالسجن، و تريد أن تربى بقية أبنائها الباقين على قيد الحياة .. و يتأمل رئيس المباحث هذا الحادث .. و كيف أن المتهمة تجردت من مشاعر الأمومة، و لم ترحم طفولة المجنى عليه؛ لتأخذ ثأرها منه .

و تقرر النيابة حبسها .. وقد ظلت بالحبس إلى أن صدر ضدها حكم القضاء العادل .

(٢٢) تجارة خاسرة

وردت كشوف تتضمن أسماء عديدة للمرشحين بالانتخابات المحلية لوحدة مباحث المركز؛ للإفادة بالمعلومات الجنائية عنهم و إبداء الرأى نحو ترشيحهم .

و قد طلب رئيس مجلس المدينة من رئيس المباحث الكشف بعناية على تلك الأسماء، و التحرى بدقة عنهم، و عدم التسرع بإبداء الرأى، إلاَّ بعد دراسة كل حالة؛ خشية الطعون التى سيبديها المرشحون الآخرون من العائلات لأخرى، حيث أن الخصومات الثأرية بينهم جعلت كل عائلة تطمع أن يمثلها أفرادها بتلك الهيئات، فيطعنون بالتالى فى المرشحين الآخرين بكل السبل .

تقبّلَ رئيس المباحث تلك النصيحة من رئيس المدينة شاكراً ... فهو ذو حنكة و خبرة سابقة، و كان يسدى النصح له من قبل حينما كان رئيساً لمباحث المحافظة، التى عملا بها سوياً، قبل ندبه للحكم المحلى .

تولى رئيس المباحث أمر تلك الكشوف؛ لفحصها بمعرفته شخصياً و على ذلك فلم يعد هناك مبرر لتأجيل الراحة المجمعة لزميله ضابط المباحث ... لذا فقد قام براحته فى موعدها .

كلف بعدها رئيس المباحث المختصين؛ بالكشف عن المعلومات الجنائية المسجلة لتلك الأسماء، مع تكليف المخبرين بعمل التحريات عن سمعتهم وسلوكهم، كل فى منطقته، أما هو فسيقوم بعمل تحريات أخرى بمعرفته شخصياً بالسؤال عن هؤلاء المرشحين، عن طريق الاستعانة بأكثر من مصدر .

في هذا الوقت، بينما رئيس المباحث مشغول بالعمل بمفرده، تأتيه معلومات بأن أحد الأشخاص، ممن اشتهر عنهم الاتجار فى المواد المخدرة، يباشر نشاطه فى المخدرات ... فيستصدر إذناً من النيابة؛ لتفتيش هذا الشخص، و تفتيش مسكنه و ملحقاته؛ لضبط مايحرزه أو يحوزه من مواد مخدرة ... ثم يتوجه و معه قوات كبيرة من المخبرين و الجنود، وكذا اثنان من صغار الضباط، إلى حيث يقيم الرجل بمنزله بوسط حدائق البرتقال .

ما أن وصلوا إلى الحديقة، حتى أسرع الجنود برئاسة أحد الضباط بالانتشار حول الدار المكون من طابق واحد . كان الباب مفتوحاً، فدخل منه رئيس المباحث، ومعه الضابط الآخر، وقوة من المخبرين والجنود إلى الصالة الكبيرة بوسط الدار، حيث تم التحفظ على من بالبيت بالصالة، و معهم رب الدار، الذى كان يتفوه بصوت منخفض ببعض الكلمات الغير مسموعة، بينما كان كلب ضخم يجلس بالصالة فى مواجهة صاحبه، ونظراً لهدوئه لم يعره أحد اهتماما، وقد وقف رئيس المباحث بوسط الصالة، يشرف على المخبرين، وهم يفتشون بها ويوجههم، ويشير بإصبعه لهم على أماكن التفتيش المحتمل وجود المواد المخدرة بها.

بينما هم على هذه الحال، إذ بهذا الكلب الضخم، الذى يدل مظهره على الوداعة، يتسحب فى هدوء، ثم يغرز أنيابه القوية بأسفل ساق رئيس المباحث اليمنى، محاولاً قضم قطعة من لحم الساق، بينما رئيس المباحث يعمل على دفعه بعيداً عنه، أسرع الجنود الذين كانوا بالصالة، بضرب الكلب بمؤخرة بنادقهم، وبعضهم بالعصى التى معهم، حتى فر الكلب إلى خارج الدار مسرعاً .

توقف التفتيش، وحدث هرج ومرج، يطلب البعض من رئيس المباحث التوجه فوراً إلى المستشفى، لكنه يرفض، ويأمرهم بالاستمرار بالتفتيش. لكن بعد فترة قصيرة، يصر زميله الضابط الصغير على دعوته للتوجه فوراً للمستشفى، مشيراً بإصبعه إلى الدم الغزير الذى سال على الأرض عند موقع وقوفه، يشاهد رئيس المباحث ذلك، فيربط ساقه بمنديل؛ لإيقاف نزيف الدم و يسرعون إلى المستشفى .

هناك يستقبله مدير المستشفى بترحاب شديد؛ لصلتهما الطيبة، و يتولى بنفسه علاج رئيس المباحث؛ تكريماً له، يطهر له الجرح ويربط ساقه بضمادة ثم يصر على أن يعطيه ـ بيده المرتعشة ـ حقنة المصل بجلد بطنه، فيتألم رئيس المباحث من وخز الإبرة أكثر من تألمه من غرز أنياب الكلب بساقه، أخيراً يعطيه مدير المستشفى تقريراً طبياً بأنه يحتاج لعلاج أكثر من واحد وعشرين يوماً، بعدها يخطر المأمور المديرية موضحاً أن الإصابة كانت أثناء العمل وبسببه .

عندما عرض المأمور على رئيس المباحث السفر، والقيام بأجازة طويلة ـ مدة العلاج ـ أحاطه بأن هذه الأجازة لن تخصم من رصيد أجازاته الاعتيادية، عندئذ نظر الضباط إلى بعضهم فى حسرة، كأنهم كانوا يتمنون أن يعقرهم الكلب؛ ليحصلوا على تلك الأجازة الطويلة! .

لكنها المسئولية، يرفض رئيس المباحث القيام بالأجازة ... ويفضل العلاج بمستشفى المركز، فهو يعمل حالياً بمفرده، نظراً لوجود زميله بالراحة المجمعة فضلاً عما وعد به رئيس المدينة بأن يتولى هو بنفسه إجراء التحريات عن تلك الأسماء، و كما كان متوقعاً فقد تدفق سيل من الشكاوى المجهولة، كلها طعون فى المرشحين ... بعضها يستند إلى وقائع صغيرة و تافهة، وقعت من عشرات السنين، و مع آلام وخز الإبر، فإن رئيس المباحث عمل بكل همة؛ كى تُسلَّم نتائج الفحص عن أسماء المرشحين فى موعدها، بعد الكشف عليها بكل دقة .

مع عودة زميله ضابط المباحث من راحته المجمعة، يتصل بهما ـ فى سرية تامة ـ زميلهما الضابط بمباحث المديرية لمنطقة المركز، و يخبرهما بأن الوزارة وافقت ـ بعد دراسة ـ على اعتقال و إبعاد بعض الأشخاص من طرفى الخصومة الثأرية بإحدى قرى المركز، و يطلب إعداد خطة؛ لضبطهم .

و هذه الخصومة من الخصومات الشهيرة و القديمة التى ترجع إلى سنوات بعيدة، سقط خلالها عشرات القتلى من الجانبين، و كان الكثير من هؤلاء الضحايا أبرياء، كل ما ارتكبوه، و كل ذنب جنوه، هو أنهم وُلِدوا تابعين لإحدى هاتين العائلتين .

و لقد جرت محاولات عديدة؛ لإجراء صلح بين العائلتين، كان الصلح الأخير بينهما بحضور المحافظ و مدير الأمن و عدد من القيادات بالمحافظة، لكن ما لبث أن نُقِضَ هذا الصلح، وتوالت الحوادث بينهما مما دعا المسئولين بالمركز و المديرية إلى طلب اعتقال عدد من الخطرين، و إبعاد بعضهم عن دائرة المحافظة، حتى يمكن أن تهدأ تلك القرية، والتى سُميت أحياناً ـ على صفحات الجرائد ـ " بقرية الموت "؛ لكثرة حوادثها ! .

ليلاً، يصل سراً إلى منزل رئيس المباحث بعض الضباط من مباحث المديرية، يراجعون سوياً الخطة الموضوعة، و كذلك توزيع القوات، ودور كل منهم؛ لكى تداهم القوات فى وقت واحد، منازل وأماكن وجود المطلوب ضبطهم من كافة النواحى.

فى الخامسة صباحاً، و مع ظهور أول ضوء للشمس، كانت القوات فى أماكنها تباشر عملها، ملتفة حول الأماكن التى بها الأشخاص المطلوب ضبطهم، شاهدت القوات بعض هؤلاء الأشخاص يفرون من منازلهم، و هم يحملون أسلحتهم الغير مرخصة، قاصدين الهرب بها . و لكن القوات تتمكن من ضبطهم، يتم ضبط جميع المراد اعتقالهم ... يحمد الله رئيس المباحث ـ فى سره ـ كثيراً، فقد كان قلقاً خشية أن يتم ضبط أفراد إحدى العائلتين، بينما لا يتمكن من ضبط أفراد العائلة الأخرى . كذلك تم ضبط الصادر بهم قرار بإبعادهم خارج المحافظة، و هم جميعاً من كبار السن، و كانوا موجودين بمساكنهم .

بمكتب رئيس مباحث المركز، طلب المبعدين؛ ليستكمل معهم إجراءات الإبعاد، أجلسهم، تحدث معهم عن عادة الأخذ بالثأر التى أصبح من الصعب إقتلاعها بسهولة، و إن تلك الإجراءات هم أنفسهم الذين دفعوا الحكومة؛ لإتخاذها، و قد يكون ذلك فى صالحهم .

تحدث أحدهم لرئيس المباحث قائلاً :
ـ بعد هذا العمر ... عرفنا أنها تجارة خاسرة .
ويربت الجالس بجواره على كتف المتحدث، وهو من خصومه، و يقول :
ـ هل تصدق يا بك ..... أننى لم أر صديقى هذا، منذ عشرات السنين؟ نعم يابك .. كنا أصدقاء .. و فى مدرسة واحدة .. و نجلس متجاورين على مقعد واحد.. ولعدة سنوات متتالية ...
و يقف صديقه سابقاً و خصمه حالياً؛ ليصافحه بحرارة ... يتعانقان ... ثم تدمع أعينهما

(٢٣) مع الشرعية.

يأتى الرابع عشر من مايو ١٩٧١، و يسافر رئيس المباحث بالقطار إلى القاهرة ليلاً، و منها إلى الإسكندرية؛ ليقضى عدة أيام ـ كراحة مجمعة ـ خلال الشهر . أثناء جلوسه بالقطار، أخذت أصابعه تعبث بمؤشر راديو صغير معه؛ بحثاً عن محطات إذاعية تذيع الأخبار، فقد علم من الراديو أن أحداثاً مهمة تقع بالقاهرة، فعدد من الوزراء يقدمون استقالاتهم، ثم أخذت الأنباء تتوالى مسرعة، فمع كل نشرة أخبار جديدة، يزداد عدد الوزراء الذين يتقدمون باستقالاتهم؛ تضامناً مع زملائهم، ويصبح الموقف غير مأمون العواقب، و يقبل أنور السادات كل الاستقالات .

يحدث رئيس المباحث نفسه، و هو بالقطار، بأنه لو لم يكن مسافراً لقضاء مصلحة مهمة، لكان قد أرجأ القيام بالراحة . يستمر فى بحثه عن إذاعات أخرى؛ لمعرفة المزيد من الأخبار، فهو تواق لمعرفة الأحداث أولاً بأول، لكن الراديو الصغير لا يسعفه، فلا يستطيع أن يستمع منه للإذاعات الأجنبية الشهيرة .

أخيراً يصل القطار إلى القاهرة فى ساعة مبكرة، بسرعة يشترى جريدة الصباح، بلهفة يتصفحها ... و يطمئن، فالجريدة تؤيد موقف الرئيس، ينظر إلى وجوه المارة، يجد الغالبية فى حالة ارتياح نفسى ... يطمئن أكثر، ويحمد الله على ذلك، فهو كرجل أمن يؤيد الشرعية .

يواصل السفر بإحدى سيارات الأجرة للإسكندرية؛ كسباً للوقت فهناك أكثر من ساعتين لقيام قطار مريح لناحيتها، يستمع إلى حديث الركاب بالسيارة عن الأحداث ... إنهم يؤيدون موقف الرئيس .كانت عناوين الصحف تحمل أهم القرارات، ومنها "إلغاء المراقبة البوليسية "، و فى الأيام التالية تتزايد برقيات التأييد للرئيس، و يتم اعتقال كل من وقف ضده من الوزراء وأعوانهم؛ تمهيداً لمحاكمتهم .

بعد انتهاء الراحة المجمعة، يعود رئيس المباحث لمسكنه بالمركز ليلاً و فى الصباح يتوجه إلى مكتبه نشطاً، فتغيير المكان له مفعول السحر فى نفسية العامل، خاصةً إذا كان يعمل بمنطقة لا تتوافر فيها وسائل الترفيه .

يلحظ رئيس المباحث أن فى نظرات بعض العاملين معه شيئاً غير عادى، لكنه لا يهتم بذلك، فقد يكون لكل منهم ظروفه وهمومه الخاصة، ثم يلاحظ ذلك الشيء الغامض فى عيون عدد آخر، فيحاول أن يستفسر منهم إن كان هناك شيء غير عادى، فيجيبه الجميع بالنفى .

لكنها الحاسة السادسة لدى ضابط الشرطة، و فعلاً كما توقع، إذ يزوره بالمكتب أحد أهالى البلدة من الموظفين الذين لهم صلة طيبة به، و بعد ترحيب رئيس المباحث به، يلحظ فى نظراته هو الآخر نفس الشيء الغامض، و بلا مقدمات يبدأ الزائر الحديث، متسائلاً :

ـ ألم يخبرك أحد بشيء؟

ـ نعم ... لم يخبرنى أحد بشىء .. ربما هناك شىء يخفونه .
ـ هذا صحيح ... فقد سمعت أن هناك قراراً بالمحافظة باعتقالك أنت وبعض الأشخاص الآخرين، وأن القرار ورد للمحافظة أمس .
ـ أنا؟ ... و لِمَ؟
ثم يكمل حديثه، ساخراً، بقوله :
ـ إنهم الآن يعتقلون الوزراء فقط! .
ـ أنا أردت أن أحيط سيادتك علماً؛ حتى يكون لديك فرصة لتدبر أمرك .
ـ شكراً جزيلاً ... على كل الأحوال .
و ينصرف الرجل ... ثم تبدأ الأمور تتكشف ... و يفسر رئيس المباحث معنى تلك النظرات الغير عادية فى عيون العاملين معه ... إذن عليه أن يقطع الشك باليقين، فيتصل بزميله الضابط بمباحث المديرية ـ تليفونياً ـ يجد زميله يتحدث معه حديثاً عادياً، كأن شيئاً لم يكن؛ مما دعاه لأن يخبره بصراحة بما وصل إلى علمه ... يتعجب زميله و يتساءل :
ـ مطلوب ضبطهم و اعتقالهم، و الأسماء بالمحافظة، و ليس لدينا علم! . لا .. لا أظن صحة المعلومة التى وصلت إليك ... و بالنسبة لك، ربما تشابه أسماء و مع ذلك سوف أسأل بالمحافظة، و أخبرك بالنتيجة .

لم يمر وقت طويل، إلاَّ و يتصل به زميله من المديرية؛ نافياً وجود أسماء مطلوب اعتقال أصحابها بالمحافظة، نهائياً .

يفكر رئيس المباحث، لِمَ أُطلِقت هذه الشائعة؟ و من أطلقها؟ .. وجَّه المخبرين؛ ليأتوه بالمعلومات على وجه السرعة ... وتظهر الحقيقة ببساطة شديدة ... أن ذلك حدث؛ نتيجة فهم بعض عناوين الصحف فهماً خاطئاً، فقد كانت العناوين الرئيسية للصحف، عند قيام حركة الخامس عشر من مايو تتضمن أهم قرارات الرئيس، و منها " إلغاء المراقبة البوليسية " التى كان مقصود بها ـ وقتها ـ التنصت على المكالمات التليفونية لكبار المسئولين وتسجيلها، و قد تم حرق شرائط تلك التسجيلات بفناء وزارة الداخلية، أمام حشد إعلامى كبير .

و لما كان الكثير من المفرج عنهم فى أحكام الجنايات، يستتبع الإفراج عنهم، وضعهم تحت مراقبة الشرطة، كعقوبة تكميلية أو تبعية و لأن أعدادهم كثيرة؛ لاشتهار المركز بارتكاب حوادث الثأر؛ فضلاً عن أن رئيس المباحث كان يهتم بالتزام الـمُرَاقَبين بتنفيذ تعليمات المراقبـة بكل دقة و حزم؛ لهذا انطلقت الشائعة، و قام البعض بتأكيدها بإضافة أن الأسماء بالمحافظة .

و لم يكن هذا الفهم الخاطىء عن " إلغاء المراقبة البوليسية " قاصراً على الأهالى بدائرة المركز فقط، بل تعدى ذلك لبعض المراكز الأخرى و قد حدث بإحدى القرى بمركز مجاور، أن وقع صدام بين شيخ الخفراء و أحد الأشخاص الموضوعين تحت مراقبة الشرطة؛ لرفضه الانصياع لأمر شيخ الخفراء بأن يتوجه لمنزله قبل أن يحل الليل؛ بحجة إلغاء المراقبة البوليسية، فما كان من شيخ الخفراء إلاَّ أن أطلق عليه النار ... والأهالى لهم عذرهم، فإن نسبة الأمـية كبيرة فى تلك المناطق .

و تمر الأيام ... و تنتهى فترة انتداب رئيس مجلس المدينة؛ ليعود لعمله بالشرطة، مأموراً بالمحافظة التى قدم منها بالوجه البحرى، يحزن الأهالى لنقله، حيث كان رجلاً نزيهاً، تقدم حال بلادهم كثيراً خلال فترة وجوده، فَيُعَبِّرون بصدق عن مشاعرهم الطيبة نحوه فى الحفل الذى أُقيم لتوديعه، وبوجود كافة الأجهزة الإدارية بالمركز . أما رئيس المباحث، فقد كان حزنه لنقله عميقاً ... فهو من المعجبين بأسلوبه فى العمل، وتتلمذ على يديه، منذ أن عمل تحت رئاسته فى حقل المباحث بالوجه البحرى.

و تدور عجلة الأيام ... و يأتى شهر يولية ... شهر التنقلات ... فَيُنقل نائب المأمور، و ضابط المباحث إلى حيث رغبا، ويأتى بدلاً منهما نائب المأمور فقط، بينما يتخلف عن تنفيذ قرار النقل، الضابط المعين للعمل ضابطاً للمباحث؛ و ذلك لوجوده بإحدى المستشفيات للعلاج من حادث وقع له أثناء و بسبب العمل . فَكُتِبَ على رئيس المباحث أن يعمل خلال العام الثالث له بمفرده، إلى أن يَمُنَّ الله على زميله المصاب بالشفاء .

كما نُقِلَ مدير المباحث إلى القاهرة، و يأتى بدلاً منه مدير جديد، كان رئيس المباحث قد عمل معه بالوجه البحرى، وصلتهما طيبة .

عقب صدور حركة التنقلات، صدر قرار بإنشاء مركز شرطة جديد، يتكون من بعض البلاد البحرية للمركز وبعض البلاد القبلية للمركز المجاور .

وقد عُيِّنَ للمركز المنشأ حديثاً مأمور قادم من القاهرة قوبل من مأمور المركز و جميع الضباط بترحاب، و أسرع بعضهم؛ احتفالاً به، بالتنبيه على فراش استراحة مجلس المدينة بإعداد وليمة لتناول طعام الغداء؛ تكريماً للمأمور الجديد كعادتهم عند قدوم ضباط جدد .

وعندما حان وقت الغداء، كان الجميع فى استقبال المأمور الجديد، الذى حضر بصحبة مأمور المركز، تناول الجميع طعام الغداء الذى كان شهياً، وأخذ الحديث بينهم يتنقل من مجال إلى آخر ... ثم يتذكر رئيس المباحث اليوم الأول لوصوله للمركز، و الوليمة التى أُقيمت له، و الحديث الذى دار بينه و بين الضباط، خاصةً زميله ضابط المباحث الذى نُقِل .. فيضحك و يحكى للمأمور الجديد ماحدث له، قائلاً عن زميله :

ـ لقد أخذ ينصحنى كثيراً ... يقول لى : انتبه عند لبس الحذاء ... لابد و أن تفتشه، وأن تضربه فى الأرض، فربما يكون به عقرب، وقبل أن تنام، لابد وأن تفتش السرير، وأن ترفع المخدات ... و فتش أسفلها ... لا تدع ملاءة السرير تصل إلى الأرض؛ حتى لا تصعد عليها إحدى العقارب.. كنت أنام مرعوباً فى الأيام الثلاثة التى قضيتها بالاستراحة ... ولم أعثر خلالها إلاَّ على صرصار واحد فقط .

و يضحك الجميع لتلك الذكريات، ثم يواصل رئيس المباحث حديثه للمأمور قائلاً :

ـ أشعرونى ـ من كثرة نصائحهم ـ أن العقارب و الزواحف فى كل مكان، ولم أجد الصورة كما وصفوها لى، و لأمانة العرض، فقد اكتشفت عقرباً بشقتى، و كان ذلك بسبب جو عاصف فى اليوم السابق لاكتشافها .

و ينتهى الجميع من تناول طعامهم، ثم قام المأمور الجديد بفتح الشرفة المطلة على الناحية الغربية، و هى خاصة بحجرة الاستقبال، و لم يسبق لأحد فتحها من قبل، وقف المأمور يستطلع ما تطل عليه، إنها تطل على قطعة أرض فضاء صغيرة مهملة، تعتبر كمنور للبنايات المحيطة بها ... و تُلقى فيها المخلفات والقاذورات، و نبتت بها بعض الحشائش و النباتات؛ من رشح مياه مواسير المجارى و المياه ....

وإذ بالمأمور يستعلم فجأة .. مشيراً بيده إلى شىء بالأرض.

ـ ما هذا؟

يضع المأمور القديم فنجان القهوة على سور الشرفة، ويمعن النظر إلى الشىء الذى يشير المأمور الجديد بإصبعه نحوه، تبدو على وجهه علامات الدهشة . و بفضولية يتقدم رئيس المباحث للشرفة، و يشاهد هذا الشىء ... و ينادى "عم أحمد" فراش الاستراحة .... بينما يُحدِّث المأمورين قائلاً :

ـ إنه ثعبان ... ضخم .

ويأتى "عم أحمد" على مهل... و يسأله رئيس المباحث، وهو يشير ناحية الثعبان الذى يبدو ظهره واضحاً بين الحشائش :

ـ هل رأيت هذا " يا عم أحمد"؟

و بهدوء يشاهد "عم أحمد" ما يشير إليه، فيرد عليه قائلاً :

ـ إنه جلد ثعبان ... يا بك ...

و يتأكد الجميع من أنه جلد ثعبان بعد التمعن فيه ... ويتجه "عم أحمد" بهدوء؛ لمزاولة عمله بالمطبخ، فيسأله رئيس المباحث بلهفة :

ـ و لكن الثعبان ... الثعبان "يا عم أحمد" أين؟

فيرد عليه بنفس الهدوء :

ـ إنه فى حاله ... غير مؤذ يا بك .

(٢٤) حراسة بالنفس

أصبح رئيس المباحث ـ بعد نقل زميله ـ يجلس بالمكتب وحيداً، لكنه فى كثير من الأحيان، كان يتذكر أحاديثه معه، ومناقشاتهما حول مشكلة الثأر ثم الخطة التى وضعاها سوياً؛ لتقليل عدد حوادثه عن طريق حل المشكلات التى تصل للمركز أو نقط الشرطة، اعتقاداً بأن هذا هو العلاج الأمثل .

حقيقةً أن العمل لم يتوقف، و أن صغار الضباط كانوا يعاونون رئيس المباحث فى عمله، و يبذلون ـ بنشوة ـ أقصى مافى جهدهم، وأن أعمال المركز فى تنفيذ الأحكام، و ضبط المتخلفين عن التجنيد قد تقدمت كثيراً، بل إن الحوادث الجنائية بصفة عامة قد انخفضت أعدادها انخفاضاً ملحوظاً، لكن كل ذلك لم يمنع رئيس المباحث من أن يشعر بافتقاد زميله، بل إنه بدأ يحس بالملل من رتابة العمل ... فالحوادث الخاصة بالثأر متشابهة، و لم يعد فيها ما يثير حماسه، هكذا ظن .

لكن مع مضى الأيام يكتشف أن هناك أموراً لم يكن يتوقعها أن تحدث فى المركز و أثناء وجوده رئيساً للمباحث . فقد حضر إليه ذات يوم أحد أساتذة الجامعات من أهالى المركز، و يشغل منصب وكيل إحدى الكليات العملية بإحدى الجامعات؛ جاء إليه شاكياً من أحد الأهالى الذى يطلب منه ـ فى تبجح ـ أن يعطيه نصف ثمن أرضه، إذا باعها! .

رحب رئيس المباحث بالشاكى، فهو شخصية مثقفة، والتحدث معه ـ لاشك ـ سيثرى معلوماته و ثقافته، و ليبعد رتابة العمل العادى وملله، وبعد كلمات الترحيب، سأله رئيس المباحث قائلاً

:ـ و لِمَ تُريد أن تبيع أرضك أولاً، ولم أسمـع ـ من قبل ـ عن وجود مشاكل عنها؟
ـ أريد أن أنهى كل علاقة لى بالبلد .
ـ لِمَ؟ هل يضايقك أحد؟
ـ لا ... و لكن حوادث العنف دفعتنى لأن يعيش أولادى بعيدين عن القرية والزراعة ... و ذلك خوفاً عليهم . و لقد كبرت أنا الآن و أولادى من بعدى يجهلون التعامل مع أهل تلك البلاد، ولا يعرفون تقاليدهم، و أخشى عليهم لقد ربيتهم، وتعلموا جميعاً بالجامعات ولا يفهمون فى الزراعة، و ليست الزراعة مهنتهم، فأردت أن أبيع الأرض؛ حتى لا يقع أولادى فى مشكـلات أو خلافـات، يـروح أحدهم ضحية لها بعد وفاتى .
ـ و هل وجدت المشترى؟
ـ لقد حضرت للبلدة .. وأعلنت رغبتى فى البيع .. وما أن سمع بعض الناس برغبتى ... حتى يحضر أحد الأشخاص من بلدة مجاورة يطالـب بنصف ثمن الأرض فى حالة بيعها ... و هذا الشخص لم أتعامل معـه من قبل، و هو معروف فى المنطقة بأنه كان شريراً فى شبابه .
ـ لماذا؟ .. هل هو مستأجر منك الأرض .. أو حتى واضع اليد عليها؟
ـ لا ... لا أبداً .
ـ و ما حجته فى ذلك؟
ـ هو يعلم أننى من أسرة صغيرة ... و يقول أنه كان يحرسها .
ـ و هل كان يحرسها فعلاً؟
ـ لا ...

يودع رئيس المباحث الشاكى، و يطلب منه الحضور صباح الغد، و يكلف أحد الشرطة السريين باستدعاء المشكو فى حقه ، ويطلب المعلومات المسجلة عنه .

فى الموعد المحدد يحضر الشاكى، و كان قد تم استدعاء المشكو فى حقه، و الذى عرف عنه رئيس المباحث بأنه سبق أن أُعتُقِل من قبل؛ لخطورته على الأمن، و أنه كان من ذوى النشاط الإجرامى فيما مضى أما الآن فلم يسمع رئيس المباحث عن سلوك إجرامى له خاصةً أنه بلغ الستين من عمره تقريباً .

يواجه رئيس المباحث هذا الشخص بأقوال الشاكى، فيعترف .

هنا يثور رئيس المباحث، و يهدد المشكو فى حقه، و يسأله قائلاً :

ـ بأى حق تطلب ذلك ... و فى مواجهتى؟!

ـ يا بك ... صاحب الأرض كان بعيداً عن أرضه ... وخلال السنوات الطويلة لم يحدث لها أى مكروه ... و لم تُسرق لا هى و لا غيرها و هذا بفضل حراستى بالمنطقة .

ـ كيف تحرسها.. و أنت مقيم ببلد، والأرض الزراعية ببلد آخر؟

ـ كنت أحرسها بالنَفَس ... الكل يعمل لى حساب، و لم يعتد أحد عليها؛ لأنها فى منطقة حراستى .

ـ تحرسها بالنَفَس؟! أحذرك ألا تقترب من الشاكى أو من أرضه أو ممن سيشتريها ... و لن يرحمك منى أنك صرت مسناً .

ـ حاضر يا بك ...

و يثبت أحد الضباط تعهداً على المشكو فى حقه لعدم تعرضه للشاكى الذى انصرف شاكراً، و وعده رئيس المباحث بأنه سيتابع الموقف بصفة دائمة .

لم يمر يوم واحد، إلاَّ و يأتى ـ فى اليوم التالى ـ الأستاذ الجامعى لرئيس المباحث، يستسمحه فى عدم إيذاء المشكو فى حقه، فقد تشاور فى الأمر ـ بعد عودته من المركز ـ مع بعض أقاربه، فأخبروه أن الأرض لن تُباع طالما الحال هكذا، فلن يتقدم أحد لشرائها، و لقد وجد مشترياً للأرض، وبسعر مناسب، و تفاهم مع المشكو فى حقه . ويستفسر منه رئيس المباحث عن السر فى تراجعه، فيصارحه القول بأن أهله أخبروه، أن رئيس المباحث سَيُنقل هذا العام، فماذا سيفعل بعد ذلك؟
حزن رئيس المباحث من هذا الموقف، و أخذ يحدث نفسه؛ مبرراً للرجل تراجعه، و خشيته على أولاده ... لكن إذا كان المتعلمون من أهل المركز سيفرون بعيداً؛ خشية المشاكل، فهل يمكن أن نتوقع تقدماً فى حل مشكلة الأخذ بالثأر؟ .
سؤال وجهه رئيس المباحث لنفسه . و قد أجاب عليه بأن أخذ يهز رأسه فى أسى يميناً و يساراً؛ دلالة على النفى!! .

(٢٥) المعيرة

وتمضى الأيام سراعاً .. وهاهو العام الثالث لرئيس المباحث للعمل بالصعيد يكاد ينصرم... بعدها سَيُنقل إلى الجهة التى يبتغيها غالباً .

و بعيداً ... بعيداً عن دائرة المركز، و تحديداً بمحطة السكة الحديد بالقاهرة و أثناء توجهه ليركب القطار للإسكندرية، إذ بشاب فى العشرين من عمره تقريباً، يرتدى جلباباً بلدياً، يهرول ناحيته، منادياً :

ــ حضرة الضابط ... يا حضرة الضابط .

يتوقف رئيس المباحث عن السير مندهشاً، و ينظر إلى الشاب متسائلاً :

ــ هل تقصدنى أنا؟

ــ نعم ... يا " .... " بك .

و يذكر اسم رئيس المباحث، الذى تبدو على وجهه علامات الانتباه والحذر فهو لا يتذكر أن شاهد هذا الشخص من قبل، فيسأله :

ــ ماذا تريد؟

ــ أريد من سيادتك أن تأخذ بثأرى يا بك .

ويتعجب رئيس المباحث لهذا القول، فيحدث الشاب بغلظة، قائلاً :

ـ ثأر؟ ... و أنا الذى آخذ بثأرك؟ .. ما الموضوع؟
ـ " فلان الفلانى "... أرشد عنى مكتب المخدرات بالمديرية ... وضبطونى بعيداً عن المركز ... و علمت بعد ذلك أنه الذى أرشد عنى ... أريد أن أنتقم منه ... أن آخذ بثأرى عن طريق سيادتك .

ما أن سمع رئيس المباحث اسم تاجر المخدرات الذى ذكره هذا الشاب، إلاّ و تهلل وجهه فرحاً، إنه من كبار تجار المخدرات بالمركز لكنه فى غاية الحذر، فكل من قاموا بتفتيشه ـ من قبل ـ لم يعثروا معه على أية مواد مخدرة؛ لأنه فور أن يتسلم كمية كبيرة من المخدرات، يسرع بترويجها خارج حدود المركز بمعرفة بعض الغلمان و الصبية ممن يثق فيهم، و أنه لا يباشر نشاطه فى تجارة المخدرات مع الأهالى بالمركز كما أنه لا يعطى سره لأى أحد ممن يعملون معه فى هذا النشاط، فضلاً عن أنه يكف عن هذا النشاط فترات طويلة، ولايكون فيها محرزاً لأية ممنوعات .

كان رئيس المباحث سعيداً ـ و هو يستمع إلى الشاب ـ أثناء مناقشته حول كيفية إبلاغه بالمعلومات، و الموعد المناسب، فور تأكده من إحراز تاجر المخدرات للكمية الكبيرة عند تسلمه لها ومكانها ... يا لسعادته .. فقد كان يتمنى أن يضبط هذا التاجر، قبل انتهاء مدة خدمته بالمركز، فهو التاجر الكبير الوحيد الذى لم يتم تفتيشه و ضبطه محرزاً للمخدرات، فقد سبق أن فتش كل تجار المخدرات بدائرة المركز، و تمكن من ضبط غالبيتهم محرزين للمواد المخدرة ... أما هذا الشخص فإنه أرجأ تفتيشه؛ لحين التأكد من حيازته للمخدر ... و ها هو الحظ يأتيه بهذا المرشد مصادفةً ... و يطول الحديث بينهما حتى كاد رئيس المباحث أن ينسى القطار و السفر! .

و يعود رئيس المباحث إلى عمله، منتظراً تلك المكالمة التليفونية من ذلك الشاب؛ ليخبره بما أُتُفِقَ عليه. تجيء تلك الساعة المهمة ، ويتجه رئيس المباحث، ومعه الضابط المنوب ليلاً، ومجموعة من المخبرين، والجنود إلى مسكن تاجر المخدرات .. و يحمد الله رئيس المباحث، فقد تم ضبطه و ضبط كميات من الحشيش و الأفيون .. ويعترف بحيازتها .

ولكن بعض أفراد القوة كانوا مستمرين فى التفتيش فى بعض الأماكن؛ لاحتمال العثور على كميات أخرى . و أثناء ذلك يصرخ متألماً أحد المخبرين، وكان قد اعتلى سطح دورة المياه، يفتش به حيث توجد بعض المخلفات متروكة بإهمال، ويوجه حديثه لرئيس المباحث قائلاً :

ـ عقرب ... عقرب لدغنى يا بك .

ـ انزل ... انزل حالاً ... لنذهب للمستشفى .

ـ لابد و أن أجده أولاً يا بك .

و يظل المخبر المصاب يبحث ـ على ضوء بطارية معه ـ عن العقرب لكن دون جدوى؛ فالإضاءة كانت غير كافية، ليسهل العثور عليه ... يستعجلهEرئيس المباحث؛ لينزل، يعتذر المخبر بأدب بضرورة البحث عن العقرب أولاً، يطول زمن البحث، و يخشى رئيس المباحث على المخبر فى تأخيره بأخذ المصل المضاد لسم العقرب، فينهره الضابط رغم علمه بأن هذا المخبر من الممتازين خُلُقاً، قائلاً :

ـ هذا أمر ... كفى ... انزل فوراً .

ـ حاضر يا أفندم ...

و يستمر الشرطى السرى فى البحث عن العقرب ... ثم يصيح فرحاً قائلاً :

ـ وجدته ... وجدته يا بك .
و ينهال على العقرب بقطعة من الحديد، كانت معه؛ لتساعده فـى التفتيش و يسب العقرب أثناء قتله . ثم ينزل على السلم الخشبى الذى كان قد صعد عليه، رافعاً رأسه لأعلى، متناسياً آلامه، يعاتبه رئيس المباحث قائلاً :
ـ قلت لك انزل ... لماذا لم تسمع الكلام؟
ـ وكيف يا بك أنزل بدون أن آخذ بثأرى؟ ..كان زملائى يُعَيّروننى !
" زملائى يُعَيّروننى "
" زملائى يُعَيّروننى "

كان لتلك الكلمات دوى هائل فى أذنى رئيس المباحث، وهو يسرع إلى المستشفى؛ ليسعف المخبر المصاب، ومن بعدها يتوجه للمركز؛ ليتخذ الإجراءات اللازمة بشأن قضية المخدرات.

و يبتسم رئيس المباحث ابتسامة خفيفة، و هو فى طريقه، فما أسعده اليوم فقد نال مناه، بضبطه لذلك التاجر و فى حيازته المواد المخدرة المضبوطة، وقبيل انتهاء مدة عمله، التى أصبحت تُعد بالأيام. وتزداد سعادته؛ لاكتشافه ـ بالمصادفة ـ أن من الدوافع القوية للأخذ بالثأر هو الخشية من المعيرة .

و يأتى يوم الوداع ... حيث يقام احتفال كبير فى المساء ... يتصدره ـ بقاعة النادى ـ رئيس المباحث و زميله الضابط المنقول معه، فقد لبت الوزارة فى النقل رغبتيهما . لكن رغم فرحة النقل ... فقد كان يكسو وجه رئيس المباحث مسحة من الحزن؛ لفراقه تلك البلاد وأهلها، فقد تعاطف معهم ... فقدروه، وفهم طباعهم ... فأطاعوه . كما أحب زملاءه فى العمل ... وأحبوه، و ها هو اليوم يفارق كل هذا ! .

تتوالى كلمات الإشادة و التقدير، مشيرة للجهود المخلصة التى بُذِلت، والتى شعر بها الأهالى، فنعموا بالأمان، بعدها يشدو أحد المدرسين بقصيدة شعر من تأليفه، عما لاحظه من أن العديد من أسماء المواليد الجديدة بدائرة المركز قد سُميت تيمُناً باسم رئيس المباحث .

ويتحدث الضابط المنقول، فيوجه الشكر للمحتفلين بتوديعهما، أعقبه رئيس المباحث بخطبة؛ ليختتم بها كلمات الاحتفال . ذكر فى ثنايا كلمته بأن هناك عادات كثيرة قد تغيرت، وتقاليد راسخة قد تبدلت .. فى الخطبة .. وفى الزواج .. وفى العزاء .. وفى كل شىء . إلاَّ عادة الأخذ بالثأر، التى تحصد الأبرياء .... فلماذا الإصرار على أن " القتل للزين، و الاتهام للزين "؟ و الذى غالباً ما يكون هذا الزين بريئاً . ثم تساءل :
ـ أما آنَ للشيوخ من أهل الصعيد ـ و قد عركتهم تجارب الحياة ـ أن يعيدوا النظر فى بعض تلك العادات و التقاليد ... و منها عادة الأخذ بالثأر؟

(٢٦) الأمل

أحد أيام الصيف الحارة، مع اقتراب نهاية القرن العشرين، جلس رئيس المباحث السابق أمام التليفزيون بمنزله القريب من البحر بالإسكندرية، وقد اكتسى شعر رأسه بالبياض، يشاهد وهو فى جلسته هذه كبار المسئولين وفى مقدمتهم رئيس الدولة، وبصحبتهم كبار مثقفى و فنانى مصر يزورون - رغم شدة الحرارة - مشروع توشكى و قد تصبب العرق غزيراً من وجوههم .

لم تكن هذه الزيارة الأولى لهم لهذا الموقع ... فقد سبقتها زيارات عديدة، وكان حلماً فى الماضى أن تحدث مثل تلك الزيارات بهذا المستوى فى أوقات متقاربة لجنوب مصر ... ولكنه يحدث الآن أمامه، و فى هذا الجو الخانق من السنة؛ بهدف النهوض بصعيد مصر، و ليس لقضاء فترات للاستجمام فى الشتاء بأسوان!

أثارت زيارة الرئيس و صحبه لمنطقة توشكى صيفاً الذكريات، فقد سرح خيال رئيس المباحث السابق إلى الأيام البعيدة، و التى مضى عليها ما يقرب من الثلاثين عاماً . لقد تغيرت الصورة، فقد أصبح للصعيد قنواته التليفزيونية الخاصة به، و انتشرت فى ربوعه الجامعات و المعاهد المختلفة، و ازداد عدد المثقفين به، و انتشرت المشروعات الاستثمارية فى مناطق عديدة منه ... كل هذا يعنى أن هناك بريقاً من الأمل!

و يتذكر رئيس المباحث السابق حديثه مع زميله ضابط المباحث أيامها و هما يتحدثان سوياً عن مشكلة الثأر، فيقول أحدهما للآخر :

" إن الأهالى - فى هذه البلاد - معذورون، و معهم حق . فهل درسنا فى المدرسة، فى السنوات المختلفة، ما يفيد من قريب أو بعيد عن الثأر و آثاره؟ أو ما يفيد أن ارتكابه جريمة أو حرام؟ لقد خلت مناهج الدراسة من أى شئ ينهى عنه، فما بال ابن القرية هنا، و هو ينشأ فى جو ينظر فيه إلى الشخص الذى يأخذ بثأره، بنظرة كلها اعتزاز و افتخار، بينما ينظر لمن يتقاعس عن أخذ ثأره ... نظرة كلها عار و احتقار " .

و يوافقه زميله - وقتها - على رأيه .

و يتذكر رئيس المباحث السابق كيف أهملنا الصعيد سنوات و سنوات ... وتركنا مشكلة الثأر تحصد الأبرياء منهم .. و كأنها أمر لا يعنى و لا يهم الدولة؛ للاعتقاد الخاطئ بأنها مشكلة بين عائلاته فقط، و لكن نتج عن ذلك أن نشأت أجيال من أبناء الصعيد وسط هذا الجو من العنف ... فتطبعت نفوس بعضهم به.

فهل آن الأوان، بعد بريق الأمل الذى يحدونا جميعاً للنهوض بجنوب مصر أن تعوض أجهزة الدولة المختلفة ما فاتها، و تسهم بقدر طاقتها للقضاء على عادة الأخذ بالثأر .. وذلك بالتنوير وبالإقناع، وليس بعمل الشرطة وحده!

تمت

الرسومات
للفنان
جرجس بخيت
عضو هيئة الفنون و الآداب
بالإسكندرية

فهرس

Table of Contents